2267
.087
.398
.1970

2267.087.398.1970
Ayyub
al-Yad, al-ard, al-ma'

DATE ISSUED | DATE DUE | DATE ISSUED | DATE DUE

JUL 1 - JUN 1 '86

DUE OCT 20 '97

JUL 13 1999

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
32101 036035762

اليد والارض والماء

ذو النون ايوب

Ayyūb, Dhū al-Nūn

al-Yad, al-arḍ, al-mā'

اليد والارض والماء

ذو النون ايوب

الطبعة الثانية

مطبعة شفيق - بغداد
١٩٧٠

1948

2267
.087
.398
.1970

آثار المؤلف

المجموعة الاولى	: رسل الثقافة	ثلاث طبعات
المجموعة الثانية	: الضحايا	طبعتان
المجموعة الثالثة	: صديقى	طبعتان
المجموعة الرابعة	: وحى الفن	
المجموعة الخامسة	: الكادحون	
المجموعة السادسة	: برج بابل	
المجموعة السابعة	: العقل فى محنته	
المجموعة الثامنة	: حميات	
المجموعة التاسعة	: الكارثة الشاملة	
المجموعة العاشرة	: عظمة فارغة	
المجموعة الحادية عشرة	: قلوب ظمأى	
المجموعة الثانية عشرة	: صور شتى	
المجموعة الثالثة عشرة	: قصص من فينا	
الرسائل المنسية	: قصة	
اليد والارض والماء	: قصة (الطبعة الاولى) ترجمت الى الروسية بعنوان (قضية السيد ماجد رحيم) والى الرومانية والهنغارية بالعنوان الاصلى .	
الآباء والبنون	: ترجنيف – ترجمة	
أسد الفلاندرز	: عن الالمانية – ترجمة	
مختارات ذو النون أيوب	: مقالات فى الادب والسياسة والاجتماع	
الدكتور ابراهيم		طبعتان

مسالمون ومعتدون **تحت الطبع**

تقديم

ذو النون أيوب ٠ للدكتور أكرم فاضل

حسبك أن تنطق بهذا الاسم أمام رهط من الناس ، ليكون التعقيب على نطقك أن حامل الاسم هو مؤلف « رسل الثقافة » و «برج بابل » و «الكادحون» و «الدكتور ابراهيم» و ٠٠٠٠ «اليد والارض والماء»٠٠٠

وقد ينبرى أحد هؤلاء الشهود ليخبرك أنه استاذ قدير فى الرياضيات شغفته القصة ، كما شغف الشعر لب سوللى برودوم الطبيب ، وكما أخذ الشعر أيضا بمجامع قلب پول قاليرى ٠

وقصصه تكاد تكون مقروءة من قبل جمهرة القراء كافة ، ولابد أن تسمع من فلان أنه تأثر بالمجموعة الفلانية ، ومن علان أن القصة العلانية بذاتها قد أخذت بشغافه ٠

وتستخلص مدى ربع قرن أو نيف أن هذا الرجل كان موجه جيل وقائد رعيل ٠

وقد رأيت من المعجبين به من ارتدوا عنه ، ولكن سرعان مايستعيد سيطرته على اعجابهم حين يشرعون بقراءة أثر جديد له ، ولو كان رسالة شخصية ٠

وبهذه المناسبة أذكر جيدا أن صاحبنا عزى الاستاذ رفعت الجادرجى برسالة غب وفاة والده كامل الجادرجى ٠ ونشرت الرسالة ، فاذا لها دوى بعيد ، واذا بها حديث الساعة ٠٠

ولعلك تسأل عن سر تعلق الناس بهذا القصاص ٠ فاخبرك بايجاز أنه سجل تاريخ العراق السياسى والاقتصادى والاجتماعى والنفسى فى قصصه ، بأسلوب يطمع فى محاكاته كل أحد دون أن يناله أحد ٠ وقد خبر الكاتب الحياة خبرا عميقا قل أن يتاح لسواه ، أو قل أن ينفذ سواه الى أعماق هذه الحياة ، فجرب بنفسه الترشيح للنيابة ، ورأى رأى العين كيف تحاك الدسائس للمرشح على الصعيدين الحكومى

والشـــخصى ، ولمس كيف يأمر الوزير بتوقيف النائب المقبل ليرهب ناخبيه ، فينجح فى هذا الارهاب ويفشل المرشح .

وأبصر كذلك كيف يتهم بالتشرد وهو أشهر من نار على علم .

ولاحظ قبل ذلك كيف تساس وزارة المعارف آنذاك .

ورأى بعد ذلك كيف يحبس ناخب فى زنزانة اعدام حتى يجن فيمـــوت .

وشـرد قربان آرائه .

ونقل الى أقصى الشمال نكاية به .

ولم يجد مندوحة من الاستقالة ، فاستقال وعاش عيشة الرهبان .

وعانى ما عاناه الشعب العراقى من مآس وويلات كان لابد لها أن تتوج بثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .

وليس المهم أن يكون قد ارتطم بخضم كل هذه الرزايا ، ولكـن المهم أن المرتطم كان يحسن الانفعال بالحوادث ويتقن التفاعل معهـــا ويبرع فى تصويرها ، فكان هذا الانتاج الزاخر الذى يمثل العراق من كل هذه الجوانب .

أما القصة التى بين يدى القارىء ، فهى تجربة عاشها المؤلـف واكتوى بشواظها ، وخرج منها لابخسران مادى فحسب ، بل بانهيار المشروع بأكمله ، ذلك الانهيار الذى جرف معه الصديق والقريب فى تياره العاتـــى .

وأفاق صاحبنا مشدوها من هول الكارثة ، فكانت صيحته هذه الملحمة التى عاشها عقلا وأعصابا .

ولعل معترضا يعترض بأن القصة سبق لها أن نشرت . وجوابى أنها نشرت عام ١٩٤٨ ونحن فى عام ١٩٧٠ . وقد نشأت عقول جديدة لانستطيع الحكم على استغنائها عن قراءة هذه الاثر العراقى الصميم ، وان الطبعة نافدة منذ عهد بعيد . وحين رغب المؤلف فى طبع القصة وخولنى البحث عنها لم أجد نسخة واحدة للاستعانة بها ، فبات من المحتم علي أن أناشد القراء على صفحات احدى الصحف ، فلـم يلـب الطلب سوى مدبج الرسالة التى أدرجها نصا كخاتمة لكلمتى هذه :

الدكتور أكرم فاضل المحترم ،
تحية اكبار واجلال ،

بعد اطلاعي على النداء المنشور في احدى الصحف المحلية ، لي الشرف بأهداء هذه النسخة من رواية «اليد والارض والماء» ليتسنى اعادة طبعها ، في عهد الحرية الفكرية لثورة السابع عشر من تمـــوز ١٩٦٨ التقدمية ، لتكون هذه الرواية (التي كانت واقعا محضا وليس خيالا منسوجا) بين أيدي الذين لم يخلقوا بعد يوم نشرها ، والى أولئك الذين لم يقووا بعد على القراءة والتفهم والاستيعاب ،والى الذين فاتتهم مطالعتها يوم ذاك لسبب أو آخر .

وتفضلوا بقبول فائق التقدير

الحلة في ١٩٧٠/٣/٢١

التوقيـع
ماجد رشيد الحديثي
موظف بديوان رئاسة
صحة محافظة الحلة

هذه رواية بناها الخيال من لبنات الواقع وملاطه ، وزخرفها الفن بالوان المحيط واصباغه ، فهي خيال محض ان اردت واقعا محضا ، وهى حقائق صادقة ان اردت حقائق عامة غير مربوطة بقيود وحدود . وكل ما أستطيع ان اتحداك به ان شككت فى صحة ما ورد فى هذه الرواية مما يتعلق باليد المغلولة والارض المحتكرة ، والمياه المضاعة ، ان اقول : عليك باضبارات الدولة واوراقها فستجد اذا ماسمحت لك الدولة بالكشف عن عوراتها ان الحقيقة اغرب من الخيال وستجد ان فى الحقيقة مرارة لاذعة وفى الخيال حلاوة مسكرة . وهذا ما يجعلنى أهرب دائما من الحقيقة الى الخيال .

- ١ -

توهجت الشمس محمرة عند الافق فصبغت مياه النهر تحتها بلون ذهبى براق يخطف الابصار ، واخذت تغوص وكأنها تغطس فى ميـاه النهر الهادئة لتبترد • وانحدر من الجرف المشرف على النهر اعرابـى حافى القدمين مغبر الوجه ، فخلع ثوبه الوحيد ، وبدا بقامته المتوسـطة الضامرة عاريا كما ولدته أمه • وبعد أن تمهل مليا أمام أشعة الشـمس الفاترة قفز الى النهر واخذ يسبح بمهارة تمساح مستمتعا ببرودة المـاء وعبر عن سروره بغناء أطلقه من حنجرته القوية فمزق سكون المسـاء واستمر ذلك الغناء لا يزاحمه صوت آخر فى تعكير السكون بضـع دقائق ، حتى لعلع صـوت طلق نارى فجأة فى الفضاء ، فأجفل السابح وانقطعت انغامه الريفية كما ينقطع خيط متوتر بضربة سكين حاد وقفـز الى ضفة النهر فدخل فى ثوبه بسرعة البرق واسرع متوثبا معتليا الجرف •

وقف سليم على الجرف ومد بصره الحاد نحو مصدر الاطـلاق وارهف اذنيه ، فرأى حشدا كبيرا من الفلاحين نساءا ورجالا ، رأى المساحى والخناجر والبنادق تتهاوى على الرؤوس والابدان وسـمع الاهازيج المحرضة فغلى الدم فى عروقه واسرع نحو المعركة • وجالت

عيناه وهو يركض باحثا عن سلاح ،فرأى معولا فوق الارض المحروثة فتناوله وبعد لحظات أصبح وسط المعركة • ومازال يجول ويصول حتى سالت الدماء فوق وجوه كثيرة وانبثقت من رؤوس عارية حليقة ، ورأى اخته تضرب فلاحا بفأس فتصرعه ، وأبصر بزوجة ذلك الفلاح تهجم كالذئبة الضارية فتهوي بمسحاة فوق رأس اخته فتطرحها على الارض ولم يبصر بعدها شيئا ، فقد شعر بألم فى جنبه ، فغامت الدنيا فى عينيه وارتمى على الارض فاقد الوعى •

- ٢ -

استيقظ سليم من غيبوبته الطويلة ، فرأى نفسه ممدداً على فراش وثير فوق سرير من حديد فى قاعة فسيحة مملوءة بسرر تماثل سريره ، فوقها أناس يشابهونه فى السحنة واللون ، بعضهم معصوبو الرؤوس ، وبعضهم صفر الوجوه . وسمع أنات من بعيد ، وغطيطا مزعجا الى جانبه وشعر باختلاج جاره ذي الغطيط ، ثم تحول الغطيط الى حشرجة ، ثم سكن النائم وهمد جسمه همودا غريبا مريبا فدارت فى رأسه اسئلة عديدة شعر معها بالتعب الشديد عندما حاول اعمال فكره للاجابة عليها وأحس بجفاف فى حلقه وبظمأ شديد ، فلم يتمالك ان صاح بأعلى صوته دون وعيه يطلب ماء ، وبعد هنيهة رأى شخصا يشبهه فى السحنة أيضا ، قدم الى فمه كأسا زجاجية مترعة بالماء ، فما شعر ببرودتها على شفتيه حتى امتصها برشفة واحدة ، ثم غاب عن الوعى مرة أخرى .

ولما استيقظ ثانية ، وجد ذهنه أكثر صفاء ووجد في نفسه قدرة على التفكير والتعليل ، وأدرك دون سؤال أنه في قاعة مستشفى ، فقد رأى امثاله مرارا في بغداد عند زيارته لكثير من اقربائه الذين دخلوا أمثال هذه القاعة فى حوادث مماثلة للحادثة الاخيرة التى أدخلته فيه .

وتذكر جاره النائم ذا الغطيط والحشرجة فالتفت صوبه ، فرآه ممددا على نقالة يحمله اثنان يرتديان ما يرتديه ذلك الذى سقاه الماء

فنظر فى وجهيهما متسائلا وادرك أحدهما مايريد فأجابه ممازحا : «لقد مات • وارجو أن يكون حظك أحسن من حظه » •

وابتسم لهما غير آسف على الراحل ولا خائف على نفسه وشعر بحركة متزايدة فى القاعة وابصر بشاب نظيف البزة جميل الوجه انيق اللباس يرتدى فوق ملابسه معطفا أبيض وبجانبه فتاة جميلة ترتدى البياض أيضا ووراءهما آخر وآخر كانوا يقفون لدى كل سرير ، حتى اتى دوره • وشعر بيدين ترفعان لحافه وثوبه وشعر بلفافة تحل حول خصره ، ثم شعر بوخز ألم حاد ، فلم تبدر منه نامة •

وسمع الفتاة تسأل الشاب بصوت رقيق حنون « ما هذه الآثـــار الشائعة فى جسمه ؟ » •

فيجيبها الشاب الوسيم « انها آثار حروق وأظنها آثار الكى • ان الفلاحين يداوون أغلب امراضهم بالكى • انظرى الى رقبته ورأســـه فهما مكويان أيضا » •

واضاف الشاب بعد أن سبر غور الجرح قائلا « الجرح خطـــير ولكنه لم يمس جهازا مهما • واعتقد ان المريض سيعيش » •

- ٣ -

اتكأ الدكتور حسام على الاريكة ، وارخى ساقيه المتعبتين الممتدتين فوق الطنفسة الرخيصة التى تغطى قاعة الاستراحة فى المستشفى ، والقى المصباح الكهربائى ، المظلل بغطاء اصفر ضوء شاحبا على وجهه الأبيض الوسيم وعلى أهدابه الطويلة السوداء المطبقة .

وفتح الباب برفق ودخلت الدكتورة هيفاء تسترق الخطا ، وشاع فى محياها سرور ممتزج بالحنان عندما غمرت الاشعة المنبعثة من عينيها الواسعتين ذلك الجسم المتعب الرشيق . وتقدمت بخفة نحو الاريكة المريحة وانحنت فوق رأس الدكتور ذى الشعر الاسود المتموج ، ثم وضعت يدها الرفيقة فوق خده وربتته بلطف .

فتمتم الدكتور دون أن يفتح عينيه : « أهذا انت ايتها الساحرة المواسية ؟ » .

فاجابت : « خيل الىّ انك قد ذبت في هذا الضوء الباهت فأردت ان أتأكد من وجودك » .

واقتربت خطى ثقيلة من الباب ، فقالت هيفاء : « هى خطوات ماجد . انى اراهن على ذلك » .

ففتح الشاب عينيه الواسعتين السنجابيتين وتطلع فى وجه صاحبته

ساخرا وقال : « انت تعلمين انى قد دعوته الى هذه الزجاجة التى أمامك فمن تريدين أن تقنعى بذكائك المفرط ؟ » .

وفتح الباب وامتلأ بجسم رشيق طويل متين التركيب ، واطل وجه اسمر عليه ابتسامة لا تخفى امارات هدوء حزين كانه بعض قسماته ، وحيا بقوله : « سلام على الآسيين » .

فاجاب الدكتور معتدلا « اذا كنت تتكلف اللهجة المصرية فليس ثمة سوى آسية واحدة » .

فاعترضت الدكتورة : « أهى القاسية تلك التى تحنو عليك فتقابلها ساخراً من ذكائها ؟ » .

فقال ماجد « أترينه يستطيع ان يترك شقاوته ؟ لو فعل لانكرته بل وربما كنا كرهناه معا » .

فعاد الدكتور الى سخريته وأجاب « انى احاول أن اطبق مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة بأوسع معانيه يا سيدى المحامى القدير » .

وكان المحامي القدير فى تلك اللحظة يقلب زجاجة الوسكى المربوعة القامة بين يديه ويتمتم : « أللهم أرسل الأوبئة والطواعين ، لتمتلىء جيوب الدكاترة الممتازين ، فيجودون على المحامين المفلسين بمثل هذا الشراب الثمين ، ليقتلوا في نفوسهم الهم الدفين ، انك أرحم الراحمين » .

وأعقب الثلاثة معاً وهم يضحكون : « آمين ثم امين يارب العالمين » .

والتفت المحامي وتساءل قائلا : « ولكن ، أين النقل الذى يليق بهذه الحوجلة ؟ » .

وفتح الدكتور فاه مستغربا وسأل الدكتورة : « ماذا دها صاحبنا الكئيب الحزين اليوم ؟ اتراه قد سكر بالايحاء حتى وصل الى درجة الهذيان ؟ » .

ونهضت الدكتورة قائلة « سآتيه بمقيء لعله يصحو » .

فهز المحامى رأسه آسفاً وقال : « ماذا تسميان هذه الزجاجة السمينة القصيرة يا من درستما الطب باللغة الانكليزية ؟ لقد استعمل أجدادنا العظام المترفون أنواعاً عديدة من زجاجات الشراب ، فاسم هذه (الحوجلة) أما النقل فهو ما تسميانه بـ « المزة » .

فأومأ الدكتور لصاحبته ، وطلب منها أن ترسل بطلب النقل ، وأسرعت الدكتورة ، ونادت أحد الخدم وأمرت له شيئاً ، ثم عادت وهى تتبادل مع صاحبها نظرات خبيثة .

وبعد هنيهة دخل رجل شاحب فى دور النقاهة . وهو سليم الفلاح ، فسلم مرتبكاً . وأشارت له الدكتورة ، وهى تكتم ابتسامتها بجهد ، أن يجلس الى جانب ماجد ، قائلة للآخر : « أقدم لك النقل سليم الفلاح » . وقالت لسليم « أقدم لك ذا الحوجله ماجد بيك المحامى القدير » .

فقال ماجد: «كنت أعلم أنكم تخللون الموتى ، وتفرمون الجيف ، أما انكم تقدمون المرضى طعاما للضيوف فأمر ما كنت اتصوره » .

فقال الدكتور : « ان من يتقن اللغة والادب مثلك ، ويشـــرب الخمرة الفاخرة ، يحتاج الى نقل عقلى لا بطنى ، وتلك وصفة طبيب خبير بدائك » .

وكان سليم ينقل نظراته فى أوجه الحاضرين وهو حائر يبـدو عليه جلياً ما يدل على أنه لا يفهم شيئاً من حديثهم ، فكأنهم يتكلمون بلغة لايفهمها .

وتقدم ماجد منه وباحدى يديه كأس فارغة ، وبالاخرى زجاجة الوسكى ، وقال : « أتشربها صرفا أم ممزوجة بالماء ؟ » .

فاجاب الفلاح مبتسما متباهياً : « أعلم أنها مسكر ، وانى لم اذقه فيما مضى من عمرى ، وسوف لا أشرب منه شيئاً الآن ، فاشربوا هنيئاً وانا فى خدمتكم » .

وسكت وقد شاع السرور فى وجهه ، وبدأ خجله يتلاشى تدريجياً حتى لفت نظر ماجد فقال مشيراً اليه : «هاكم من يسكر بالايحاء وأرجو أن لايثمل » .

- ٤ -

شرع سليم يجيب على أسئلة ماجد العديدة بسرور ، فقد رأى فى اهتمام هؤلاء الافندية بتمريضه والعناية به ، واستطلاع أخباره ما جعله يشعر بشيء من الاهمية لنفسه ، فقال بلهجته الريفية وأسلوبه الرائق البسيط : «ليست هذه هى المعركة الاولى بيننا نحن أفراد العائلة الواحدة، وسوف لاتكون الاخيرة • لقد حط جدنا الاول رحاله مع ثلة من عشيرة الجبور فى هذه الارض منذ ما ينوف عن المائتى سنة • وتزوج كثيراً ، وانجب عددا من الاولاد • واعقب الاولاد ، التابعون لسنة ابيهم فى الزواج ، احفاداً والاحفاد أولاداً حتى تجاوزوا الالف عداً • وشرع جدنا بزراعة شواطىء النهر بالكرود • وما كانت الارض يوم ذاك ذات قيمة ، فتركت لهم فاستوطنوها وعمروها ، وأخذوا يذودون عنها بدمائهم حتى كان الاحتلال الانكليزى ، فحاول بعض ذوى الثراء والنفوذ من بغداد ان يطردونا منها فلم يفلحوا ، فقد رأى المستعمر الجديد ان الاستقرار يسود هذه المنطقة القريبة من بغداد حتماً اذا ما أخلد الفلاحون الى السكينة ، ولا شيء يجبرهم على ذلك أكثر من الاشتغال بالزراعة ، وهكذا منحت الحكومة المحتلة اسرتنا الفى مشارة من هذه الارض ، فدأبنا على استغلالها ، وعندما شاعت محركات النفط ، زادت تكاليف زراعة الارض ، فاحتجنا الى المال ، وبدأنا نستدينه من المرابين

والبياعين الذين يرهنون الحاصل قبل زرعه ، فالمرابى يتقاضى ما لايقل عن ثلاثة بالمائة فى الشهر ، وأما البياع فيستقطع ربع ثمن الحاصل تقريباً عند بيعه بأساليب شتى . وهكذا صرنا نزداد فقراً يوماً بعد يوم . وانحلت روابطنا القبلية والعائلية ، وأصبح قسم قليل منا رقيباً علينا لمصلحة الملاك ، وقسم يحاول أن يخفف من ضائقته بسرقة المحصول الذى يزرعه ولا يملكه ، أو بمحاولة زرع أرض جاره . وسبب الحادثة التى جرحت فيها أن سميراً أخى حاول ان يزرع جزءاً من حصة ابن عمى مرهون ، وكان هذا الاخير قد ترك أرضه لتقويتها بعد أن أتعبها توالى الزرع » .

فقاطعته هيفاء بقولها : « ولكن ألا يستطيع مالك الارض أن يترك الزراع يزرع ثم يغتصب الزرع مادام فى أرضه ؟ » .

فأجاب ماجد ساخراً : « الفلاح أعلم بالقانون من الدكتورة . انك تجهلين ايتها النطاسية ان الزرع للزراع وان كان اغتصاباً . وهذه حكمة القانون » .

وسر سليم بالاطراء فتحفز في جلسته وقال : «ولمثل هذه الحوادث تسيل دماء كثيرة كل يوم ، وقد علمتم دون شك أن عدد القتلى فى تلك المعركة كان ثلاثة ، والجرحى بجروح خطيرة عشرة ، أما المجروحون بجروح خفيفة فعددهم غير معلوم اذ لم يدخلوا المستشفى » .

فسأل الدكتور « ولكن أليس لكم رئيس عشيرة يوقف أمثال هذا النزاع ؟ » .

فاجاب الفلاح : « لايخضع الفلاحون القريبون من بغداد لنظام العشائر . فبعضهم قد أصبح من أرباب الارض ، وتحول البعض الى فلاحين تحت امرته . وعدد أصحاب الاراضى من العشائر قليل جداً اذا قيس ببقية أصحاب الاراضى من الافندية والبيكات الذين استملكوا الارض نتيجة لتراكم الديون على الفلاحين بفوائضها الفاحشة ، وأصبحنا نحن أصحاب الاراضى الاصليين فلاحين عند اربابها المدنيين » .

ونهض ماجد وقد دب النشاط فى جسمه ، وأخذ يذرع الغرفة بساقيه الطويلتين وهو يهمهم : ها نحن هؤلاء نجهل أهم ما يتعلق بشؤون قوتنا . نجهل اشياء على بعد اشبار من أبصارنا » .

فابتسم الدكتور وقال لرفيقته :« أهو الشراب فى الحوجلة أم النقل فى الحوصلة قد فعل به ما فعل ؟ » .

فأجابت الدكتورة : « لقد انتابته حمى جديدة من حمى الوطنية» .

ورأى سليم أن الجلسة على وشك الانتهاء ، فقال مقترحاً : « كم يسعدنى لو قبلتم دعوتى مساء يوم تختارونه ، فتقضون وقتاً طيباً فى الريف ، حيث أرد لكم بعض ما اسديتم لى من معروف ! » .

فتبادل الثلاثة النظرات ، وقال ماجد : « اقتراح طيب ، ودعوة كريمة ، ولولا بعد الشقة لقبلناها شاكرين » .

فأجاب سليم « انها مسافة نصف ساعة بالسيارة » .

فقالت الدكتورة : « اذا كانت قريبة لهذا الحد ، فانى أول من يقبل الدعوة » .

فقال الدكتور : « سيحسبك القوم هناك راقصة » .

فاعترض سليم مدافعا : « لسنا بهذه الدرجة من الهمجية يادكتور . اننا من سكنة ضواحى بغداد ، وبعضنا محام أو طبيب ، وما اكثر ماتسمع البيك الجبورى والاستاذ الجبورى والافندى الجبورى » .

- ٥ -

انعطفت السيارة بعد أن عبرت جسر ديالى ، فقطعت بضعة كيلومترات فى طريق جانبية غير معبدة ، لا تمتاز عما يجاورها من الاراضى الا بخلوها من حفر الخضراوات ، وبخلوها من أثمار البطيخ الاحمر والاصفر ، المنتشرة بين شجيراتها فوق الارض كالحصباء المغبرة .

قالت هيفاء : « ألا ما اجمل هذا (الركى) وما أكثره ؟ أتعلمان أننى لم أبصره قبلاً في منبته ؟ » .

فقال الدكتور ساخراً : « قد كانت تحسبه ينمو معلقاً فى الفضاء كالبرتقال » .

وأوقف سليم السيارة ، ونادى بصوت جهورى فلاحاً كان يفحص تلك الكرات الخضراء المغبرة . فاقترب الاخير من السيارة ، وسلم على سليم بحرارة ، مهنئاً اياه على السلامة ، ثم نظر الى الثلاثة الماثلين مقاعد السيارة الخلفية ، بحياء وحذر ، وطلب من السائق أن ينتظر ، ثم أسرع الى تلك الكرات ، وصار يفحصها مرتباً ظهورها برفق ، قاطفاً ما يروق له منها بخنجره ، ونزل سليم يعاونه ، وفتح السائق أبواب السيارة وأسرع يعاون الفلاحين على نقل تلك الكرات وحشرها بين

الاقدام ، حتى تكدست وزاحمت أقدام الضيوف ، ثم ودع سليم صديقه الفلاح ، واعتلى السائق مكانه .

فقال له ماجد : « اننا لم ندفع ثمنها ، ولم أرك تدفع شيئاً فهل بينكما حساب جار ؟ » .

فجلجلت ضحكة سليم وأجاب : « لابيع ولا شراء هنا . كل شيء شاع » .

فاعتدل الدكتور وسأل المحامى : « أيعنى الشيوعية الهدامة ؟ » .

فاجاب ماجد باسماً : « جهلك بالسياسة ياسيدى الدكتور كجهلك باللغة العربية » . ثم وجه الخطاب الى سليم : « ان ثمن (ركية) واحدة يربو على المائة فلس فى بغداد ، فكيف تفسر لذهنى القاصر : ان هذه الكرة الخضراء بانتقالها فى سيارة مسافة ثلاثين كيلومتراً يرتفع ثمنها من الصفر الى المائة » .

فاعتدل سليم وقال شارحاً : « لم أقصد طبعاً أن كل انسان يستطيع ان يأخذ ما يريد من هذه المزارع مجاناً . ولكن هذا الثمن الذى تتحدث عنه يتكون من ثمن النقل والبياعة والضرائب ، وما تبقى بعد ذلك يقسم مناصفة بين الفلاح وصاحب الارض ، فلا يكون ثمن الركية الواحدة بالنسبة الى الفلاح أكثر من عشرة فلوس ، وهذه فرصة الفلاح لاظهار كرمه وأريحيته ، فهو يأكل ويطعم ، وكل ذلك ربح له اذ أن اغلب ما يجود به من مال غيره » .

ومضت السيارة تنط وتترنح فتميل الى اليمين واليسار ، وتعبر السواقي قفزاً ، حتى اعتلت منحدرا ، ثم استوت فوق طريق ترابي غير معبد ، يعلو عن جرف النهر بضعة اقدام .

وقال سليم : « لقد وصلنا . ان السيارة تسير فوق سداد النهر الآن » .

وتلفت ماجد يمنة ويسرة ، ثم اعتدل وأشار باصبعه الى سليم والى النهر والارض وقال : « اليد والارض والماء ، الاقانيم الثلاثة ومصدر حياة هذه البلاد على الاطلاق » .

وقطعت السيارة طريقاً بجانب سور بستان ، ثم انبسطت الارض أمامهم . واقتربوا من كوخ بجانبه أنبوب يرمي الفضاء بنفثات من دخان أدكن ، وسمع هدير المحرك بداخل الكوخ . ووقفت السيارة أمام حشد من الاعراب يتقدمهم شيخ كليل البصر غير أنه معتدل القامة قاسي الملامح ، وآخر قصير جامد الوجه ، رقيق القسمات .

استقبل الفلاحون أصحابنا الثلاثة بما اشتهر عن الاعراب من رعاية تقليدية للضيف ، فهؤلاء الفلاحون لا زالوا يمتون الى اصولهم البدوية بصلات وثيقة ، وكان الرجلان المتقدمان يتميزان عن الباقين باللباس ، وبما كان يبدو على الباقين من احترام لهما عند الكلام .

ووقف ماجد حذاء الكوخ ذى الهدير ، وتطلع فى داخله . فقال الشيخ : « تفضل يا افندى فتفرج على ماكنتنا » .

ودخل الثلاثة ذلك الكوخ العديم النوافذ . ولما اعتادت اعينهم

الرؤية فى الظلام ، رأوا الى جانب العجلة الطائرة ، رجلا حديدى اللون والملامح يكاد أن يكون جزءاً من تلك الآلات الدائرة ، وقدمه الشيخ الى الزوار .

فقال ماجد : « هو من بغداد طبعاً » .

فاجاب الشيخ : « لا بل من أبناء العشيرة . لقد اتقن فن ادارة المكائن واغلب الذين يعملون فى المكائن الزراعية هم من أبناء العشائر ، أو من الفلاحين . ومنهم من وصل بهم اتقانهم لفنهم الى درجة عظيمة ، حتى استخدموا في معامل المدن » .

- ٦ -

كان المساء من تلك الاماسى الصيفية النادرة ، فلا حرارة مرهقة ، ولا رطوبة خانقة ، وكان النسيم يهب بين الفينة والفينة فيحرك أغصان أدواح التوت فيمتزج حفيفها بخرير الماء فى السواقى .

وتمدد الدكتور فوق بساط ، مسندا ظهره ورقبته الى المخاديد الكثيرة المحشورة وراءه . أما المحامى فقد طوى ساقيه بسهولة تحته كما يفعل الاعراب عند الجلوس ، وجلست هيفاء القرفصاء وقد ساعدها على ذلك بنطلونها الواسع الذى كانت ترتديه . وكانت الأبسطة وفوقها الاحشية والمخاديد تكون شبه حلقة . وبدأ الشيخ واسمه حسين ويلقبه القوم بأبى مطر ، يطرى ضيوفه ويشكرهم على اهتمامهم بابن أخيه سليم ، ويبالغ فى الشكر حتى اربك الضيوف .

وانبرى ماجد يجيب : « انكم الحجر الاساس فى بنائنا الاقتصادى فما دمتم تعملون كل عمركم لتغذيتنا فمن الواجب علينا أن نسدد لكم بعض هذا الدين . انى احب ريفكم ، وكم اتمنى لو أكون مزارعا مثلكم » .

وبدا الاهتمام على وجه ذى القامة القصيرة واسمه (زبالة) ويلقبه القوم بأبي حسن فتحفز وسأل ماجدا : «اذا كنت حقا تعنى ما تقول فما اسهل تحقيق امنيتك » .

فاستدركت هيفاء مبتسمة : « ان هذا البيك الذى يحب الزراعة لا يملك ما يكفى لشراء مقاطعة تحقق حلمه » .

فاجاب زبالة كمن يخشى ان تفلت منه فرصة : « ولكن لاحاجة الى شراء الارض فهنا بالقرب منا ارض أميرية واسعة بكر لم تستغل منذ مئات السنين وفى استطاعة من يرغب فى الزراعة ان يؤجر ما يريد منها فاذا أراد ماجد بيك ، فنحن بخدمته لارشاده الى الطريق السوى الذى يوصله الى غايته » .

واعتدل الدكتور وقال « مادامت الاراضى كثيرة الى هذا الحد فلماذا بربكم تقتتلون على أشبار منها ؟ ولماذا لاتؤجرونها انتم ؟ »

فتنهد الشيخ حسين وقال : « لقد حاولنا ذلك عشرات السنين ، ولكن الملاكين الكبار المجاورين كانوا يسدون علينا الطريق وفوق ذلك فليس باستطاعتنا ان ندافع عن قضايانا فى الدوائر الرسمية ، وأهم من كل هذا عدم وجود رأسمال كاف لدينا لنصب المضخات وارواء هذه الارض » .

فسألت هيفاء : «ولماذا لاتكونون شركة تعينكم على الوصول الى هدفكم ؟ » .

فقال زبالة : « لايدرك المزارعون مزايا الشركات ولا يعترفون باهميتها . اما اشتراك اثنين أو ثلاثة فأمر شائع ولكن ليس فى استطاعتنا نحن ان نشترك مع المجاورين اذ يستهدف هؤلاء الجيران طردنا من

الارض كما فعلوا باكثريتنا الساحقة . ولايعتمد اصحاب الاموال علينا اذ يتوهمون بنا الشر والاحتيال » .

فسال الدكتور : « ولكن فلنفرض انكم استطعتم استئجار هذه الارض فهل تنتهي المعارك بينكم ؟ » .

فاجاب سليم : « اننا لا نقتتل حبا بالقتال ، ولو تحقق ما تقول لما رايت خنجرا يشهر » .

وأضاف زبالة : «انك يا ماجد بيك ، وانت محام قدير ، أجدر الناس بتحقيق هذا الحلم فانتم المحامون تعرفون طرق الدوائر ومسالكها، فيا حبذا لو هداك الله واشتركت معنا بتحقيق هذه الاحلام « انه على كل شيء قدير » فان الزراعة الآن تدر ذهبا والربح منها اضعاف مضاعفة» .

وركز الدكتور ماجدا بكوعه ، وقال له هامسا : «يالها من ورطة ايها المحامي العظيم . ارني كيف تخلص نفسك منها» .

ولم يلتفت اليه ماجد بل بقي ساهما مقطب الجبين ، ثم سأل : « كم يكلف هذا المشروع من المال ؟ » .

فاسرع زبالة مجيبا : « عشرة الاف دينار تكفي مبدئيا لاستغلال عشرة الاف مشارة من هذه الارض ،فالارض رخيصة لو استؤجرت والاجرة تدفع أقساطا . ولدينا مجرى يوصل الماء الى الارض ، فليس ثمة غير بناء المضخات لرفع الماء من النهر ، أما الفلاحون فهاهم عبيدك بين يديك ، ولدينا نحن ثلاثة الاف دينار من هذا الرأسمال » .

وبقى ماجد ساهما مفكرا ، وتبادل الدكتور والدكتورة نظرة ذات معنى والتمعت عيون الفلاحين ببريق امل بعيد ، وظهر القلق على قسمات زبالة الدقيقة وبدت اللهفة عليه ، وسكت القوم مليا وكأن على رؤوسهم الطـــير .

وكان سليم فى تلك اللحظة يملأ أكوابا من اللبن الرائب ، قـدم أولها الى ماجد وقال : «لقد رأيت فى المنام ، بعد أول مقابلة لنـــا فى المستشفى ، انك قدمت لى حفنة من تربة النهروان ، فاسـتحالت فـى يدى ذهبا لونها كلون الويسكى الذى كنت تشربه تلك الليلة » .

فسأله ماجد وهو يتناول كأس اللبن : « وما هذا النهروان ؟» .

فأجاب الفلاح : «هى الارض البكر التى تتحدثون عنها» .

فسأل الدكتور : «كم مساحتها ؟» .

فاجاب زبالة متحمسا : « نصف مليون مشارة يا بيك » .

وقفزت هيفاء وكاد ماجد يغص باللبن ، وفتح الدكتور فاه وحملق ثم هتف : « يا للسماء ! ومع كل ذلك فالدماء تجرى بين الفلاحين على شبر من الارض ، ولكن خبرنى كم تبعد هذه الارض عن النهر؟» .

فأجاب زبالة مستبشرا «ستة كيلو مترات ، سأريكم ايـــاها قبل العشاء وحق الامام سلمان باك » .

وانتفض الثلاثة معا ناهضين واسرع سائق الســيارة ، دون ان ينتظر أمرا الى مقعده ، وتبوأ الثلاثة مقاعدهم الخلفية، وانحشر حسين

وزبالة بجانب السائق ، وتعلق سليم بجانب السيارة بعد ان تنكب بندقيته وتحزم بالعتاد .

واجتازت السيارة نفس الطريق وما انقضى ربع ساعة على مسيرها حتى أوقفها الشيخ حسين وقال مشيرا لضيوفه : « تفضلوا فقد وصلنا الى ارض الميعاد » .

- ٧ -

نزل المستكشفون عن مطيتهم السهلة ، بجانب ربوة ، وساروا وراء الشيخ حسين المتوجه نحو تلك الربوة ، وتبعوه صاعدين حتى وصلوا الى القمة فانبسط أمامهم سهل واسع متفز لا يحده البصر ، تلتمع تربته تحت أشعة الشمس الآفلة ، وتخترقه سلاسل متوازية من تلال تسير فى استقامة واحدة وتبرز فيه عدة ربايا كالعقد بين تلك التلال ، تشبه تلك التى وقف عليها أصحابنا .

وانحنى الشيخ ، فتناول حفنة من التراب فقبلها خاشعا ثم ذراها فى الهواء وتمتم كالعابد المتبتل : « هذه التربة من أجود ماخلق الله من ترب . هى ذى الارض فسيحه تنبسط وتمتد حتى الكوت . قد منعها الملاكون الكبار عن الفلاح ، وتركوها فلاهم يزرعونها ولايدعون يد غيرهم تمتد اليها » . وأضاف وهو يلوح بيديه : « لقد شلوا هذه الايدى فمنعوها من توصيل الماء الى هذه الارض واحياء هذه التربة المباركة » .

وبدا التأثر على وجه ماجد فانعقد حاجباه شأنه عندما تثور عواطفه ، وقال : « قبل مئات السنين كان العباسيون يسقون هذه السهول سيحا ، فيحملون لها الماء من أطراف سامراء . انظروا الى هذين الخطين المتوازيين المتقاربين من التلال . هذه هى اثار المجارى التى كان الماء يملؤها فيحيل هذه الارض الى جنان . لقد اندثرت ، ولم يبق من

ذكراها الا اخبار في بطون الكتب • وهنا تحت أقدامنـــا يرقد اجداد الفلاح العراقى الحاضر ، فهذه الربى المنتشـــرة في السهل كانت قرى عامرة فيها قصور الاقطاعيين والامراء والملوك ، فيها البساتين النضرة التى ترتع فى جنباتها القيان والغلمان الحسان ، وما أدرانا ؟ لعل الرشيد جلس يوما حيث أقف ، ولعل هذا النسيم الرخى قد تموج فحمل صـــوت ابراهيم الموصلى والحان اسحاق الى آذان الثملين من الأمراء والشعراء والمغنين • لقد دهمها اخيرا الوباء الأصفر ، هولاكو وجنوده من أقاصى الشرق ، فقتل الفلاح ودمر القرية • وخرب الجسور والمعابر فأقفـرت الارض وتحولت الى اطلال وها هى تنتظر من يعيد اليها الحياة » •

وانتهى ماجد من محاضرته المؤثرة فقال الدكتور مازحا : « لعلـك ياسيدى المحامى ذلك الاله الذى سينفخ فيها من روحه » •

وعاد «زبالة» يضرب على نغمته العملية المقنعة ، فقال مشيرا باصبعه «ها هو المجرى الذى يخترق اراضينا حتى يصل الى هذه التـــلال • انظروا اليه فهو كالثعبان قد دفن راسه فى هذه الكثبـــان • ان هـذا المجرى لو اخترق التلول فانه سينحدر فى هذه الارض كالشـــلال ، فمستوى السهل هنا اوطأ كثيرا من مستوى جرف النهر حيث تنصـــب مضخة الماء » •

فقال له الدكتور : « يظهر ياصاح انك قد احكمت وضع الخطـط لاستغلال هذه الارض ، وكنت تتربص لعلك تصطاد من يعينـــك على تحقيق احلامك ؟» •

فأجاب زبالة : « ايها البيك الدكتـــور ! أرى انى قد اصـطدت

من يحقق هذا الحلم . أو ما ترى البيك المحامى يلوح وكأنه قد سقط فى الشرك . على أنى سوف لا اكتفي به وحده فانت والآنسة رفاقه في السراء والضراء ، وأرى انكما ستكونان له نعم العون » .

فقهقه الدكتور وقال مخاطبا ماجدا : « اترك سهومك هذا يارجل ، واسمع ما يقول مضيفنا العزيز ، انه لا يكتفى بك وبى ، انه يريد هيفاء أيضا . ترى ماذا سيسمونها يوم تصبح ربة زرع ؟ انهم يسمون رب الارض (ملاكاً) فما مؤنث هذا ؟ (ملاكة) اليس كذلك ؟ مرحى مرحى ؟ لقد اتينا زائرين فرجعنا ملاكين » .

وأجاب ماجد : « لا تستبعد هذا الذى تتحدث به ساخرا . فلعلك ستكون أول من يساهم فى احياء هذه الارض يا محيى العظام وهي رميم » .

ورجعوا الى مقرهم الاول ، وقد تربع البدر على عرش السماء خلفاً للشمس الغاربة . وكان الطعام قد أعد . فالقطاع مترعة بالارز تغطية جثث محمرة غير مقطعة لخراف صغيرة أو دجاج ، تحيط بها اطباق تحوى انواع المخضر المطبوخ مما تنتجه الارض ، وكان البطيخ و (الركى) مشقوقا لكى يبرد ، وقدور اللبن ممتلئة تطفو عليها الكؤوس .

وجلس الرفاق الثلاثة حول القصاع وامتنع المضيفون عن مشاركتهم فى الاكل ، ووقفوا لخدمتهم تبعا لتقاليدهم .

وقال ماجد : « هيا يارفاق ، ولنأكل كما كان يفعل جدنا انسان العصر الحجرى » . وتناول ضلعا من تلك الجثث المحمرة بكلتا يديه ففصله ، ثم قدم لهيفاء فلذات من اللحم وهو يقول : « هكذا كان يفعل انسان الغاب مع النساء عند الاكل » .

- ٨ -

غرفة الاستقبال فى دار الاستاذ ماجد رحيم هى غرفة المطالعة والمكتبة معا .

الغرفة متوسطة الحجم ، ولكنها أوسع الغرف فى منزله المتواضع حيث يعيش مع أمه . وهى مزدحمة بالاثاث ازدحاما شديدا ، وذلك لتقوم بتلك الوظائف الثلاث . فدولاب الكتب يملأ احد جوانبها بطوله ، واحتل مازاد منها الرفوف وبعض النوافذ .

أما الاثاث فانيق متين يجمع بين مزايا كثيرة ، ليصلح لاغراض كثيرة فبعضه للجلوس ، وقسم منه يصلح للاغفاء أو الاضطجاع . وتوزعت فوق الجدران صور فنية ، اغلبها يمثل جمال الجسد العارى توزيعا فيه ذوق فنى ، وفى ركن من الغرفة تمثال نصفى لفولتير قد أجلس فوق منصة عالية .

كان زبالة مرتبكا فى جلسته فوق مقعد مريح ، ينظر هنا وهناك حائرا مستغربا . ولولا الهدف الذى شغل فكره لما احتمل الجلوس فى تلك الغرفة .

وكان الدكتور حسام مصطفى ينظر الى زبالة مسرورا بحيرته ، ورأى عينيه تجولان فى الصور ، وتستقران على جسد الفتاة العارية

التى بيدها كتاب (القارئة) ففاجأه قائلا : « أظنك تتساءل لماذا تقرأ هذه الفتاة وهى عارية ؟» .

فاجاب زبالة : « لاادرى يابيك ولانستطيع نحن الفلاحين أن نفهم ذوق الافندية . ولكن لماذا هذا الصنم ؟ مشيرا بقوله الى تمثال فولتير .

فأجابه الدكتور : «أظنه يضحك من محامينا ماجد ، لانه يذرع الغرفة ذهابا وايابا بدون جدوى ولاسبب » .

ودخلت هيفاء وورائها خادم يحمل فناجين الشاى ، فقالت لماجد: «ان امك تقول بانك مشغول الفكر جدا فى الايام الاخيرة ، وقد توهمت انك قد سقطت فى شراك غانية» .

فقال الدكتور مبتسما : «وهل صححت لها خطأها . قولى لها قد سقط فى شراك الثروة والجاه . ويريد ان يجرنا وراءه» .

فقال زبالة : «عيب على الرجل أن يسقط فى شراك امرأة . او ليست المرأة عبدة حقيرة للرجل ؟» .

فنظرت هيفاء اليه شزرا وقالت : « ايها السيد يا ابا حسن ، اذا كررت أقوالك الفارغة مرة أخرى امامى فساحقنك بأبرة طبية سامة» .

فقال ماجد ضاحكا : « تهديد بالقتل . في استطاعتك يا زبالة ان تسوقها الى المحكمة وتسجنها » .

فقال الدكتور : «سيستعمل حقه لو عارضت فى تحقيق مشروعه» .

وقال زبالة : « انا لااعنيك يادكتورة عندما اتكلم عن المرأة ، فأنت

بالحقيقة رجل أكثر مني ، فأنت دكتورة راقية ، وأنا لا ازال أجهل القراءة والكتابة . . انما اعنى نساءنا الشبيهات بالبهائم» .

فقالت هيفاء : «أنا دكتورة وحسام دكتور أيضا ونحن نشعر بأننا متساويان ، وانت وزوجتك فلاحان أميان ، فلماذا لاتشعران بالمساواة ايضا ؟» .

فقال زبالة متخلصا من ورطته : « ونحن كذلك نشعر بالمساواة انما أذم نفسى أيضا عند ذم امرأتى فأنا اشعر بأننا متأخرون عنكم وهذا من سوء حظنا» .

فقال ماجد : «وما فائدة الجدل ايها السادة فى التوافه ؟ من يريد رقيا لهؤلاء فليعلمهم ، هيا ساهموا فى مشروع احياء الارض الميتة . أنا مستعد لوضع ما ادخرته ، ومستعد لرهن الدار التى أسكنها ، وسأطلب من عمى مبلغا طيبا حتى لو أصر ان اتزوج بابنته مقابل ذلك . فى استطاعتى ان قدم ثلاثة الآف دينار . وعندكما أيها الدكتوران ثلاثة مثلها ، قد ادخرتماها للزواج فقدماها ولدى زبالة ورفاقه ثلاثة أخرى . ها قد وجد المال فأين العمل؟» .

واعتدل الدكتور وقال : «يظهر أيها المحامى البارع انك مصر على ان تسلبنا ما جمعناه لتأسيس دار واسرة ، لقد اقنعت هيفاء وجعلتها تتمرد علىّ . لقد انهارت مقاومتها امامك . انها تحاججنى بقولها : « انها مخاطرة قد تأتى بالربح . أما اذا خسرنا فلا يحول ذلك دون اقترانا . ولدينا من مهنتينا مايعوض هذه الخسارة » . أما انا فأرى ان من اشتغل

بغير مهنته فهو أحمق مجنون» .

فقال زبالة متلهفا : « لانطلب منكم العمل في غير مهنكم ، فالزراعه لاتتطلب غير المال والنقود والادارة الحسنة . انكم اناس طيبون وسنكون خدما لكم فى كل عمل تقترحونه ، وليس عليكم الا ان تشرفوا علينا ، وتديروا أمورنا . وقد تعهد الاستاذ ماجد ان يحمل على عاتقه كل عمل يخص القانون والمحاكم والدوائر . وليس من حقكم ان تعتبروها مخاطرة فأنى اؤكد لكم ان اموالكم ستعود عليكم فى نهاية السنة أضعافا مضاعفة ، وربما تركتم مهنتكم واصبحتم مثرين تعيشون دون جهد ،واذا لم تصدقوا فأسالوا كل من يشتغل بالزراعة» .

فقال ماجد : « اولا تذكر يادكتور يوم لفت انت نظرى فى ملهى من الملاهى ، الى تكاثر الراقصات وتزاحمهن على ذوى العقال ، واحتقارهن للافندية ؟ انك نفسك قد اعترفت يومذاك بأن أصغر مزارع قد أصبح يلعب بالمال لعبا فعلام الخوف ؟ ساهم ، واني اراهن ان اجمل فتياتنا وراقصاتنا سيتهافتن عليك تهافت الجياع على القصاع بمجرد ان تسمى ملاكا» .

فقالت هيفاء ساخرة : « ومن سيتهافت علىّ أنا لو أصبحت ملاكا أيها المحامى الذى اضاع عقله فى سبيل الجاه والثروة ؟ » .

فاستدرك ماجد يقول : «يمينا لقد اضعت عقلى كما تقولين . انها وسيلة اقناع ليس غير ، وانت تعلمين شدة اخلاص هذا الدكتور لدكتورته » .

فقالت « سوف لا أرجع عن الوقوف بصفك لتعلم بأنى لا أخاف من راقصاتك ، وسأجبر الدكتور على المساهمة لنرى موقفه مع راقصاته » .

فضرب الدكتور يده بالاخرى ، وقال : « لقد قبلت يا سادة . فلا مرد لحكم هذه الدكتورة الدكتاتورة ، وأنا أخاف من ابرها المسمومة أكثر مما أخاف من غضبها ، وأخشى أن تفسخ الخطوبة لو امتنعت ، وسوف لا أصفح عنك يا سيدى المحامى لو تزوجنا على قارعة الطريق بنتيجة مخاطراتك . وانا لله وانا اليه راجعون » .

- ٩ -

اختفت روح الهزء والسخرية من أحاديث الأستاذ ماجد رحيم وبرقت عيناه ببريق النشاط ، وتبدل طابع الحزن فى وجهه بطابع الجد والاهتمام ، فأصبح وكأنه قد وجد معنى لحياته بعد أن افتقده مدة طويلة . وعرفته دوائر الحكومة المختلفة وعرفها ، فهو فيها كل يوم ينتقل بين دواوين وزارة المالية ، ودوائر متصرفية اللواء والكتاب العدول . وكان يحمل محفظته الجلدية أينما ذهب ، وصارت الاوراق والمستندات تتراكم فى محفظته تحمل تواقيع ، وبصمات ابهامات ، وغير ذلك . ووجد عونا فى أصدقاء كثيرين منتشرين فى تلك الدوائر ، فكانوا يسهلون له بعض المهام ، ويرشدونه الى ما يخفى عليه من دقائق الامور . وكان زبالة صنوه فى تلك الجولات والرحلات ، وكان يزهو ويتباهى برفقته ، ويشعر بأهمية متزايدة لشخصه . وقد اعترف لماجد دون خجل بأنه كان فى كثير من الأحيان ، فيما مضى ، يطرد من تلك الدوائر عند مراجعته طرداً ، فيستعين بالنقود على التخفيف من شراسة الموظف المحتد ، الذى لا يكاد يبصر بالورقة الزرقاء والحمراء ، حتى يسميه شيخا ، ويجلسه بجانبه ، ويرسل بطلب القهوة أو الشاى له ، واعترف له مرة بأنه رشى محامي وزارة المالية ، فى قضية اقامها على تلك الوزارة ، ورشى بعض الموظفين ممن يحتفظون بمستندات تلك القضية وأوراقها ،

فقدموا وأخروا وأضافوا وحذفوا ، حتى ربح هو الدعوى .

وكان ماجد يحاول جهد امكانه ان يفهمه خطأ تلك الأساليب ، ومبلغ ضررها عليه وعلى الدولة معا ، فكان يجيبه : « انك حديث العهد بالعمل فى الزراعة يا استاذ ، وستريك الأيام أن نصف دينار تدفعه لكاتب صغير أو عشرة دنانير تدفعها لرئيس دائرة ، أو درهما تدسه لفراش ، تقيك من خسارة المئات والالوف » ثم يضيف متفلسفا : «ان هذا المبلغ الزهيد من حقوق هؤلاء الموظفين المساكين ، اذ كيف يمكنهم أن يقتاتوا برواتبهم التافهة . ان الانصاف واجب علينا ، فاذا أردنا أن نربح فيجب ان نحسب حساب هؤلاء المساكين أيضا ، ونعطيهم نصيبهم من هذا الربح ، وهو شىء قليل يمكنك ان تعتبره صدقة ليس غير » .

كان ماجد يدرس اطوار رفيقه الاعرابي فى كثير من اوضاعه التى يراها نادرة غريبة . فهو حديث العهد بأمثاله . كان يراه يعطى كل شحاذ يمر به دون استثناء ، رغم ضيق ذات يده ، ولما أبدى ماجد استغرابه مرة ، قال الأعرابى : « اننا مقدمون على عمل خطير ، والصدقة تدفع البلاء يا استاذ » . وكان فوق ذلك يدفع حسابهما من عنده فى كل مقهى أو مطعم يدخلانه معا ، واذا أصر ماجد على المساهمة أو المشاركة احتد ، وقد يصل به الغضب الى اعتبار ذلك العمل اهانة ، فينسحب ماجد ضاحكا تاركا لرفيقه المجال لارضاء حب الظهور والمباهاة . وفاجأه مرة فى دائرة من الدوائر ذات الشأن فيما بين أيديهم من عمل ، ورأى البغتة على وجه زبالة ، وعلى وجه رئيس الدائرة ، ولمح يد رئيس الدائرة تسرع وهى مملوءة بعدد من النقود الورقية فتخفيها فى

أقرب جيب ، فشك فى الامر ، وطلب من زبالة ، بعد خروجهما من تلك الدائرة ، وكان مقطب الجبين ، ايضاحا فأقسم له الاعرابى بأنه دين كان في ذمته قد رده للدائن ، ولكن ذلك لم يقنعه فقال لزبالة « سأنفض يدى من المشروع بتاتا لو اكتشفت أنكم تلتجئون الى طرق غير مشروعة لتحصيل حقوقكم ، فعملنا قانونى مفيد ولسنا لصوصا أو مهربين لندافع عن أنفسنا بالرشوة » .

وشكى زبالة الى الدكتور تشدد ماجد وتعنته فى أمور تافهة ، كمنح بعض الفراشين والموظفين الصغار منحا بسيطة ، وأكد له أن تلك النفحات لا تعد رشوة ، ولكنها ضرورية للاسراع واتقاء البطء المضر فى المعاملات الرسمية .

والتقى الدكتور بماجد ، وطلب منه ألا يضايق هذا المسكين ما دام يدفع من جيبه مختارا بعض المال فى سبيل تمشية الاعمال بسرعة .

فقال ماجد : « انه يرشى بعض الموظفين يا حضرة الدكتور ، وأعتقد ان احالة الارض الينا بنتيجة المزايدة ، بهذا السعر التافه ، وبدون وجود منافس أو مزاحم ، هو من تأثير الرشوة » .

فقال الدكتور : وهل تشكو قلة السعر ؟ يا لك من رجل أعمال قدير ! ولماذا يذهب بك الظن هذا المذهب البعيد ؟ فانت تعلم ان هذه الارض واسعة جدا وان كل المجاورين قد اكتفوا بنصيبهم منها ، فلماذا تستغرب رخص الأجار ؟ » .

فاجاب ماجد « ذلك لأنى علمت بأن الاعلان عنها فى الجرائد قد

ثم بعد انتهاء معاملة أجارها ، وقد انتبهت وزارة المالية الى هذا الأمر . وتساءلت ، فادعى الموظف المختص ان ذلك كان من اهمال الجرائد ، لا من اهماله هو . أما أنا فاعتقد أن الأمر قد تم بتلك القبضة من الدنانير ، التى رأيتها تدخل جيب حضرة الموظف النزيه » .

فقال الدكتور : « وما ذنبك أنت ؟ لعن الله الراشى والمرتشي والرائش ، فاهنأ يا سيدى المحامى بأن الله قد سخر لك حتى من يرشو الناس عنك ولا يحملك وزر تأنيب الضمير . واذا كانت الامور لا تتم الا بالكيفية التى تذكرها فليكن غيرك المذنب ، اذا كان ثمة ذنب » .

- ١٠ -

دبت فى المنطقة التى جرت فيها المعركة الدموية التى افتتحنا بها هذه الرواية ، حركة غير اعتيادية ، فقد شاع بين المجاورين بان آل فريحة قد تعاقدوا مع جماعة من بيكات بغداد المتنفذين ، واستطاعوا استئجار عشرة آلاف مشارة من أراضى النهروان ، وأن ما حلموا به ربع قرن قد تحقق فعلا .

وذهب الجيران فى قبول هذه الشائعات شتى المذاهب ، فمنهم من صدق وآمن ، ومنهم من كذب تكذيبا مطلقا ، ومنهم من ادعى بأنها محاولة فاشلة جديدة من محاولاتهم السابقة الكثيرة الحابطة .

وكان زبالة والشيخ حسن يتحدثان مع المتسائلين ، من حاسدين ساخرين ، أو من اصدقاء مهنئين ، بلهجة من قد انجز أموره وانتهى من مشاكله ، وأصبح المشروع تاما بين يديه . واذا ما سئلوا عن شركائهم الجدد أطلق زبالة من لسانه الذرب سيلا من الدعاية الضخمة الكاذبة ، فادعى بأن ماجدا ابن احد الباشوات المشهورين ، وان كل متنفذ فى الدولة يمت اليه بصلة القربى والنسب . وان الدكتور حسام والدكتورة هيفاء من أنبل الأسر العراقية وأعرقها ، وأنهم يملكون من العقار والذهب والفضة ما لا يحصى ولا يعد . واذا ما تطور السؤال عن مبلغ ما أعد من رأس المال للمشروع الجديد ، قال زبالة باحتقار :

« ثلاثون الفا وضعت فى البنك مبدئيا ، واذا تطلب الامر فمثلها قد أعد احتياطا لحين الحاجة اليه .

وقد تحداه أحد الحاسدين مرة فقال له : « اذا كان الأمر كذلك فستزرعون كل أراضى النهروان يا أبا حسن » . فقابل زبالة تحديه بتحد مماثل وأجاب : « ومن قال لك أننا سنزرع ربعها أو نصفها . ان هذه الاراضى الواسعة قد اصبحت لنا ملكا بعونه تعالى » .

وتناقل سكان المنطقة هذا التصريح وهم بين ساخر وهازل ومصدق ومكذب .

ووصل الخبر آذان جبابرة الاقطاعيين من المجاورين فقهقهوا ضاحكين وقالوا :

« لقد عثر آل فريحة على فريسة سهلة وأناس سذج جدد ، ليسلبوهم ما بجيوبهم من دريهمات . فلنتفرج على فصل جديد من الفصول المضحكة التى مثلوها على مسرح هذا الجرف مدى ربع قرن» .

ولكن تلك السخرية أخذت تخف شيئا فشيئا حينما أبصروا قطع المكائن الضخمة ، تدرج بها سيارات الحمل الثقيلة فوق السداد الترابى ، فترميها أمام جرف آل فريحة .

كانت القطع من نوع جبار لم يشاهد مثله فى تلك المنطقة .

ودرجت سيارة من ماركة ماك القوية مرة ، وهى تنوء تحت عجلة واحدة ، والاطفال من ورائها دهشون ، وكان زبالة يتقدم السيارة ماشياً وعيناه تبرقان وهو يعطى الأوامر بصوت عال يسمعه القريب

والبعيد ، وحدث لغط عظيم ، واجتمع اغلب الفلاحين على الجرف ، ونزل الحمالون الاكراد بروافعهم وعتلاتهم ، وبدأوا بسحب تلك العجلة .

وأسر زبالة فى آذان صغاره أن يسرعوا الى أطفال الجيران وينشروا بينهم الخبر ليتفرجوا على تلك الآلات الضخمة ، وما كان بحاجة الى ذلك ، فقد اصطف فوق الطريق الترابى عدد من الفلاحين، والملاكين والاطفال ، يكفى لارضاء زهوه .

ولما سأله احد حساده المعروفين : « ماذا ستفعلون بهذه المكائن الضخمة يا أبا حسن ؟ » أجاب ساخراً : اننا سننصب عليها مراجيح لصبيان الفلاحين » . وقهقه مناصروه وأخذوا يسخرون من السائل الشامت .

وتراكمت الى جانب الصناديق والعجلات أكوام من الحصى والرمال والسمنت ، يحرسها ليلا حراس مسلحون بالخناجر والبنادق تحت قيادة سليم ، ويزورها المتفرجون نهارا فيبدون اعجابهم بتلك المكائن الضخمة التى تبدو الى جانب مكائنهم الصغيرة المنتشرة على الجرف كالجبابرة الى جانب اقزام ، وشاع ان آل فريحة سيفتتحون النهروان .

ومر بالجرف ذات يوم ملاك ضخم أحمر الوجه منفوخ البطن ، فأوقف سيارته الفارهة وقال لصديق كان يصحبه : «يظهر ان آل فريحة

جادون هذه المرة » . ثم برقت عيناه وأضاف : «انى أعلم مدى قدرتهم وقدرة شركائهم المالية ، فلندعهم يعملون في بناء هذه المكائن ، وفي حفر الترع والمجارى ، وانى على يقين بأن هذا المشروع بعد انجازه سيؤول الي ّ ، وانى اراهن على ذلك » .

- ١١ -

قدم ماجد المهندس الميكانيكى الذى اختير لنصب المحركات ومضخات الماء الى صديقه الدكتور وخطيبته الدكتورة بقوله : « اسمه لازار لازاريدس ، ويسميه الفلاحون بثلاثة أسماء فمنهم من يسميه نزار ، ومنهم من يدعوه زاردست ، ومنهم من يناديه بالأسطى زاغ . والزاغ كما لا يخفى عليكم هو الغراب الأسحم ، وأظن هذا الاسم يليق به أكثر من غيره ، فهو على الرغم من جنسيته اليونانية ، ذو وجه أشد أسمرارا من وجه العربى البدوى ، ولعله ينتسب لعطيل » .

واطلق المهندس ضحكة مجلجلة تدل على خفة روحه وميله الى المجون والهزل ، وأضاف بلهجة معوجة : « ان حظي أحسن من حظ اجزاء المكائن ، فلها فى لغتهم أسماء تدل على مهارة فى النحت والاشتقاق والتعريب ، (فرستن) عندهم (رستم) (والفلاى ويل) (فلاوين) (والكوندينسر) (كندية) ... » .

وكانت الدكتورة لا تكاد تفهم ما يقول بعباراته الركيكة المحرفة فخاضت معه فى حديث طويل باللغة الانكليزية ، وعلمت منه انه قد درس فى أرقى جامعات أمريكا ، وحاز بفن نصب المكائن وادارتها ، شهادة عالية .

وشكى لها ما يقاسى من اقتراحات هؤلاء الفلاحين الفجة ، وعدم

اهتمامهم بأصول الفن والدقائق العلمية ، ورغبتهم فى انجاز العمل بأسرع وقت ، واستغرابهم لهذا الاساس الضخم الذى أعده ليجلس الماكنة الثقيلة عليه ، وتذمرهم من تعنته وعدم اهتمامه بأقوالهم وخبرتهم ، الى غير ذلك من شكايات طويلة عريضة .

وكان الوقت عصراً ، والعمل قد توقف وجلس الزوار يستمتعون برقة النسيم ، وجودة الهواء . فقال لازار : « لا أدرى لماذا لا يشتغل جميع أبناء الباشوات امثالكم بالزراعة ؟ » .

فبغت الدكتور وقال : « أى باشوات تعني ؟ » .

فقال المهندس « ان جميع الفلاحين هنا يعتقدون بأنكم أبناء باشوات ، ولديكم من الثروة ما يعجزون عن تصوره » .

فقال الدكتور لماجد : « مرحى مرحى . انها مؤامرة جديدة ياسيدى المحامى العظيم . لقد أصبحنا من الملاكين بفضل الحاحك ، فكيف ترى سنصبح من الباشوات ؟ وأبناء البيكات ؟ » .

ثم التفت الى الازار وأضاف : اعلم ايها المهندس ان أبي بقال ولا زال يمارس مهنته ، أما والد الدكتورة فموظف لا يزيد راتبه الان عن الثلاثين دينارا ، رغم بلوغه سن التقاعد ، والمحامى أفقر من عليها ، رغم أن عمه يملك الالوف ، والحقيقة انه الوحيد الذى يمت الى البكوية والباشوية بصلة ، وربما قرر ، اعترافا منه بجميلنا ، أن يلحقنا بنسبه الكريم ؟ » .

فقال ماجد : « كفاك سخرية يا سيدى النطاسى ، واعلم انها طبيعة

أخرى في شركائنا الاماجد ، فهم يفتقدون النفوذ والسيطرة ، فيبحثون عنهما عند شركائهم ومن يعتمدون عليهم • لقد روجوا هذه الاشاعات عنا وأعطونا من الألقاب والنفوذ والأهمية ما لا يمكن أن نحلم به مطلقا، ومصيبتكم اهون كثيرا من مصيبتي ، ففي كل يوم يقصد مكتبي كثيرون من أبناء العشائر ، وبيد كل منهم اقتراح باجار أرض ، أو امتلاكها ، أو التدخل لحسم نزاع • وكل منهم يمنيني بنصيب الاسد ، حتى لقد ضقت ذرعا بكثرة الحاحهم •

ووجهت الدكتورة كلمة عتاب الى زبالة والشيخ حسين والحاضرين من اقربائهم وطلبت منهم الكف عن نشر هذه الاكاذيب عنهم واخبرتهم ان معارفهم في بغداد اذا علموا بذلك فسيكونون سخرية لهم وهزؤاً •

فقال ماجد : « لقد حدث ذلك لجنابي الكريم فقد دعاني عدد من زملائي الخبثاء الى عشاء ذات مرة وما علمت سبب كرمهم المفاجيء حتى التأم المجلس ،فاذا بهم يمثلون دورا متقنا في اصطناع التعظيم والخضوع وكيل الالقاب والمبالغة في الاحترام حتى كدت اجن واخيرا علمت من أين أتت تلك المصيبة ، فقد سمعوا بالالقاب التي خلعها علي السيد زبالة ورفاقه • فهم لكي يسموا انفسهم بين اقرانهم شركاء الباشوات خلعوا علينا تلك الالقاب مقدما • او تدرون اني كدت اتصور نفسي حقا باشا وابن باشا ؟» •

فقال الدكتور : «لم يبق الا ان تعتقد ذلك بنفسك ياسيدي المحامي حتى ارشحك لدخول مستشفى الامراض العقلية لاصابتك بأتعس أمراض العقد النفسية ، وأرى ان تأخذ اجازة من هذا العمل المضني فأني أخشى على عقلك من العاقبة » •

- ١٢ -

تقدم العمل فى مشروع ماجد رحيم كما أصبح يسمى ، بسرعة خارقة ، وانتصبت المضخات بمحركيها الضخمين على جرف النهر نظيفة أنيقة وتم بناء حوض الماء والقناطر ، نظف المجرى وطوله عشرة كيلو مترات ليصل بين ذلك الحوض والارض البكر .

وانهمك ماجد بالتعاقد مع الفلاحين الراغبين فى زراعة الارض ، واقبل الفلاحون على العمل فى مشروع ماجد من كل حدب وصوب ، يدفعهم الى ذلك سمعة الارض الطيبة وسمعة الملاك الجدد وما اشتهروا به من طيب المعاملة ودماثة الاخلاق وحبهم لمن يعمل معهم ، واحترامهم لتلك الطبقة التى تعمل لاحياء الارض ، وكان ماجد يباسطهم ويمازحهم وهو يبصم ابهاماتهم على المستندات عند استلامهم السلف وسأل أحدهم: «انك تضع ابهامك على مستند لا تقرأ ماهو مكتوب فيه» .

فتبسم الفلاح وأجاب : « لو طلبت منى أن اوقع صك العبودية لك أنا واولادى وزوجتى لما ترددت . ان لنا غريزة تساعدنا على أن نميز من يريد بنا خيرا عن من يريد بنا شرا ، ان وجهك الضاحك وابتسامتك الرقيقة ، وبريق عينيك تدلنى على انك لست من زمرة الملاك الذين عهدناهم فانت تعمل لنا أكثر مما تعمل لنفسك ، وستترى مقابل ذلك منا عجبا يا بيك » .

وأعلن ماجد لسليم استغرابه شيوع اسم «خلف» بين الفلاحين فنصفهم تقريبا يحمل هذا الاسم فهذا شيوخ الخلف وذاك خلف الزلمه ، وآخر خلف المطلق وغيره غضيب الخلف .

فأجابه سليم : « ربما كان ذلك لانهم كلهم يخالفون أوامر الحكومة واوامر ملاكيهم . فالمخالفة مبدأهم ، واذا اطاع احدهم فهو من الشواذ» .

وسأل فلاحا يناهز الستين ، وكان يطلب سلفة ضخمة : « انك رجل عجوز ، ومع ذلك فأنك تريد سلفة تساوى اضعاف ما يطلبه سواك وهم شبان» .

فأجاب الشيخ : « انى اطلبها لى ولاولادى الستة وكلهم شبان وسأتزوج بقسم منها امرأة اخرى» .

فضحك ماجد واجاب : « أما أنا فلم اتزوج بواحدة حتى الآن» .

ونزل الفلاحون فى الارض البكر وشادوا لهم اكواخا من الطين والحصير وكانت اعمالهم التمهيدية تنجز بسرعة عجيبة ولم تمض على بدء العمل ثلاثة أشهر حتى تم تنصيب المضخات وحفر المجرى وبنيت فى تلك الارض المقفرة قرية يبلغ عدد نفوسها الخمسمائة وتقرر ان يجرى الماء وتجرب المكائن فى أول يوم من أيام الخريف .

ودعى آل فريحة شركاءهم ، وعددا من اصدقاء شركائهم وكل المجاورين ، لحفلة الافتتاح ، ووقف لازار المهندس وسط المكينتين يعطى الاوامر لسواقها وعمالها استعدادا لاطلاقها ، وكانت أمارات اللهفة

والقلق تظهر على وجه زبالة الفريحة . وأطلق سائق المكينة الأول ، الهواء المضغوط من مخزنه ، ففحت المكينة فحيحا جعل قسما من المتفرجين يهربون خائفين ، ثم دزت دويا هائلا وتحركت عجلتها الضخمة ببطء حركة متقطعة ، ثم انطلقت تجرى ، واعقبت الثانية رفيقتها الاولى ، وتدفق الماء فى الحوض فامتلأ به وهدر فى المجرى ، فكاد يفيض ، وعلت صيحة الفلاحين مرة واحدة عند رؤية الماء المتدفق (اللهم صل على محمد) ونحر ثوران على حافة الحوض ، فسالت دماؤها فى الماء فصبغت صفاءه بحمرتها القانية .

ورقص الفلاحون على نغم أهازيجهم عند رؤيتهم تلك الكمية الهائلة من الماء المتدفق ، ولعلعت طلقات البنادق فى الفضاء ثم وزعت لحوم الضحايا على الفلاحين .

وكان ذلك اليوم يوما مجيدا فى تاريخ آل فريحة، وكانت وليمتهم فاخرة تحدث بها الجيران مدة طويلة .

وهمس ماجد في اذن الدكتور وهو يبتلع فلذة كبيرة من اللحم: « الا تشعر بالغبطة والسعادة ، وأنت ترى المئات من هؤلاء الفلاحين يغمرهم سرور مفرط ، وتلوح عليهم امارات السعادة والنشاط ؟ أنظر الى الأيدى وهى تصفق للمياه المتدفقة المسرعة الى تلك الارض الميتة لتنفخ فيها روح الحياة ، انى لا أفكر بالمال قط ، وأنا أرى ما أرى . ان الربح قد أصبح فى نظرى أمرا ثانويا . لقد وجدت الان معنى من معانى السعادة التى ينشدها الانسان فى كثير من الاحيان ، فلا يجدها . لقد وجدتها في بريق عيون هؤلاء الفلاحين . اننا قد انشأنا عملا مفيدا

لمئات من الناس ، ووفرنا قوتا للألوف ، وأحيينا أرضا ميتة ، وأعدنا جزءا من سيرة تاريخية عظيمة . حقا انى لاشعر بسعادة مفرطة » .

وكان الدكتور حسام يصغى الى تدفق رفيقه بالحديث وعلى وجهه ظل ابتسامة حب واعجاب ، وأضاف : «ان هذه القرية تحتاج الى مدرسة ومستوصف ، وسيتم ذلك بعد أن نفرغ من الأعمال التمهيدية » .

- ١٣ -

اتصل الدكتور حسام بدار الاستاذ ماجد تلفونيا غداة يوم الاحتفال ، فأخبره بأنه قد علم ان زبالة والشيخ حسين وسليم قد قبض عليهم ، واوقفوا فى مركز ناحية سلمان باك وانهم يستغيثون به. وأسرع ماجد فاتصل بمدير الناحية فسأله عن علة توقيف رفاقه . فأجاب مدير الناحية بأن الموقوفين قد تجاوزوا على أراض أميرية لاتعود لهم ، وأنه رغبة فى توقيف هذا التجاوز قد قرر توقيفهم اداريا . ولما أجابه ماجد بأن هذا العمل غير صحيح من الوجهة القانونية ، اذ كان على الادارة ان تمنعهم أولا ،اذا صح هذا التجاوز ، فأن لم يمتنعوا فرض عليهم العقاب ، أجابه المدير : « أنه كان من الواجب ان يتصلوا به قبل القيام بأى عمل فى هذا المشروع ، وما دام قد تجوهل الى هذا الحد ، ففى مقدوره أن يستعمل سطوته الى أقصى حد ، والبادى أظلم» .

ورأى ماجد أن المخابرات التلفونية لاتجدى في الدفاع عن رفاقه، فأسرع الى مركز الناحية ووصل الى المركز بعد ساعة واحدة بسيارته السريعة يعلوه الغبار ، ورأى رفاقه فى غرفة الموقف داخل قفص حديدى لايختلف كثيرا عن قن الدجاج .

وكلمه زبالة من وراء القضبان ، وأكد له بأنه غير مستاء من شىء لولا شماتة الحساد ، ثم همس في أذنه قائلا: «هذه عاقبة تجاهلنا للمدير ،

وعدم اعطائنا حقه له ، سواء في الدراهم أو بالدعوات . والمجاورون ينوون أحباط العمل وتهديمه مهتبلين هذه الفرصة » .

ودخل ماجد على المدير فرآه جالسا وراء مكتبه يمثل العظمة والجبروت في غرفته الحقيرة وكان في غرفته عدد غير قليل من الملاك والفلاحين يكيلون له القاب البيكوية جزافا .

وقدم ماجد نفسه للمدير ، فطلب منه الجلوس بتكلف وكظم ماجد غيظه بصعوبة ورأى ان استرضاء هذا القط المتنمر اولى .

وسأل ماجد : « ألا تدري ايها السيد المدير بأني مع رفاقي قد أجرنا قطعة ارض من اراضي النهروان ، وأننا قد أجزنا بالعمل على نصب المكائن لتعميرها واروائها ؟» .

فأجاب المدير : «أعلم ذلك أيها السيد المحامي ، ولكنك يجب ان تستلم هذه الارض مقدما وتحددها قبل البدء بالعمل » .

فقال ماجد : «ولكن العقد ينص على عدم التحديد باعتبار ان الارض غير ممسوحة ولامقسمة ، ولايوجد نزاع عليها فالتساهل من قبل العاقد مع المتعاقد غايته تشجيع الزراعة واصلاح الارض» .

فأجاب المدير ساخرا : «حضرتك أيها المحامي قانوني بارع ولكنك حديث عهد بالزراعة كما يلوح لي ، والاولى ان تسأل غيرك من ذوي الخبرة بالزراعة عن أصول العمل واهمية الدوائر المختصة ، كهذه الدائرة التي تجاهلتموها ، قبل أن تقدم على نصب مكائنكم وأرى ان هذه الغلطة ربما عرضتكم لخسران كل المبلغ المصروف» .

وشعر ماجد بالغيظ يخنقه فأجاب : «فى استطاعتى ان ادافع عن نفسى ومشاريعى اذا هددها مهدد ، واحب أن أخبر حضرة المدير أن القانون فوق المدراء مهما شعر هؤلاء بالعظمة ، وكل ماأريده منك الآن هو أن تطلق سراح شركائى فاني محاميهم وسأقدم شكاية عند كل أعتداء يلحق بهم ولاأرى اى حق لك فى هذا التوقيف» .

فاجاب المدير : «يؤسفنى الا اجيب طلبك ايها المحامى البارع ، وقانون العشائر يخولنى هذا الحق كما لايخفى عليك » .

وخرج ماجد فأخذ وكالة قانونية عامة عن رفاقه وأزمع ان يقدم شكوى الى وزارة الداخلية . ورجع الى بغداد فورا وقابل الرئيس المختص بمثل هذه القضايا في وزارة الداخلية . وطلب منه أن يطلق هؤلاء المساكين الابرياء فاجاب الاخير ان هذه الاوراق يجب ان تحول الى المتصرفية للنظر في الشكوى وان سير المعاملة ربما استمر أكثر من مدة التوقيف فلا يكون فيها فائدة . ثم نصح ماجدا بأن يلتجىء الى الوساطة بدلا من الطرق الرسمية .

وادرك ماجد ان غاية المدير هو التوقيف لكسر نفوذ رفاقه وتثبيط هممهم وايقاف العمل ، ورأى ان الشكوى قد تضره بدلا من أن تفيده فأسرع الى خالد بيك وهو من اكابر موظفى وزارة الداخلية ومن أصدقاء عمه ، فتلقاه خالد بيك مرحبا وسأله عن أعماله الزراعية الجديدة التى انتشر خبرها وذاع صيتها ، فقال ماجد ضاحكا : « لقد جئتك فى أمر يتعلق بهذا المشروع» : وبسط له شكواه واعلمه بالورطة التى وقع فيها رفاقه فقال خالد بيك : « هذا أمر بسيط» . ثم اتصل

تلفونيا بصديق له ، وبعد ان تكلم معه قال لماجد : « سيأتيك رفاقك بعد مدة قليلة الى بغداد ، وتذكر بهذه المناسبة ان العناد مع أصغر موظف فيما يتعلق بمشاريعك قد يجلب لك ضررا كبيرا ولا تنسني عند الحاجة » .

فودعه ماجد وقلبه يفيض شكرا .

- ١٤ -

اجتمع الشركاء فى مكتب الاستاذ ماجد رحيم فى مساء ذلك اليوم وكانت امارات الاهتمام والجد تبدو عليهم جميعا ، وبدا القلق والكدر على وجه الاستاذ ماجد . أما الدكتور فكان يخفى همومه بنكاته الظريفة فقال مفتتحا الجلسة : « ها قد بدأت المشاكل ومن سوء الحظ انها بدأت بعد ان صرفنا ماعندنا ولولا ذلك لهربنا قبل فوات الفرصة فأول الغيث قطر ، وانت ترى ياسيدى المحامى انك رغم مهارتك فى مهنتك لم تستطع ان تنقذ تابعا صغيرا من اتباعك قد اعتدى عليه موظف ادارى صغير ، فالتجأت الى طريقة ماكنت ترتضيها لنفسك قبلا فاستعنت بالنفوذ واخشى ان تفسدك الايام أكثر من هذا» .

فرد زبالة بقوله : « ان النفوذ هو الاول فى كل عمل والقانون لاشىء بجانبه ولاعيب ان يدافع الانسان عن حقوقه بمثل هذا الاسلوب ، فنحن نستعمل النفوذ فى الدفاع كما ترى لافى الاعتداء . ولو طاوعني الاستاذ ماجد لكنت ارضيت مدير الناحية سلفا ، ولو فعلت ذلك لما حدث ماحدث » .

فضحك الدكتور واجاب : «أنه يريد ان يرغمك على الايمان بمبدأ الرشوة ارغاما ياماجد ، كما أرغمك على ان تصبح ملاكا» . ثم التفت الى زبالة وقال : « انى معجب بفنك العملى يا أبا حسن ولكن صديقنا

المحامى ذو ثقافة يعتز بها تمنعه من سلوك مثل هذا السبيل حتى ولو خسر الدنيا بأجمعها » .

فقال الشيخ حسين : « اذا لم تستعمل الرشوة فليستعمل النفوذ وان لم يرد استعمالهما معا فليستعمل القوة لتحصيل حقوقه ، اما القانون فالاصلح له أن يتركه جانبا الآن ، ونحن ادرى الناس بقيمة هذه القوانين » .

وتوثب سليم فى جلسته وقال : اننا لم نسرق أحدا ، ولم نعتد على أحد فلماذا اعتدى المدير علينا ؟ تالله اذا حاول هذا الارعن ان يعتدى علي دون حق مرة أخرى فأنى سأمزق احشاءه بخنجرى ، واذا كانت الدولة لاتحمي رعاياها فعلى الرعايا ان يحموا أنفسهم بانفسهم » .

وقال ماجد أخيرا : « ايها السادة ان الامر أخطر مما تتوهمون فقد علمت ان الملاكين الكبار المجاورين غير راغبين فى جوارنا ، ولا يوافقهم نجاح مشروعنا ، وانهم قد بيتوا أمرهم وائتمروا بنا بكل ماعندهم من سلطة ونفوذ ، وسيحاولون ان يقبروا هذا المشروع وهو فى المهد فاذا انسحبنا الآن خسرنا كل ما صرفناه واذا أقدمنا ففى الاقدام أمل » .

فسأله الدكتور ضاحكا : « وماطريقة هذا الاقدام ونحن اضعف الجيران طرا ؟» .

فاجاب ماجد ان الاقدام هو بالاصرار على العمل واكمال الزرع فالنظام يساعد المزارع النشيط واغلب مواد القانون الزراعى تساعد المزارع رغم قصورها وضيقها . انى أعلم بأن اعداءنا سيضعون أمامنا عقبات كثيرة ولكنها كلها غير قانونية ، فعلينا ان يكون جوابنا بالعمل

مدعوماً بالقوة والجرأة .

وتبسم زبالة مستبشرا وقال : « تالله ايها الاستاذ انك حكيم حاذق اما من جهتنا فاعتمد على سواعدنا وسلاحنا ، فالانسان يضحى بحياته دفاعا عن عرضه وماله ، وما قيمة الحياة اذا غلب الانسان على أمره ؟

وقال سليم : « سنعمل ليل نهار حتى تصبح الارض خضراء بعد مدة وجيزة ، واذا حاول أحد أن يمنعنا فسأدفنه فى تلك التربة ليصبح سماداً للزرع » .

فقال الدكتور هازلا : « ما دام الامر كذلك فسآتى بسيارة الاسعاف لنقل الجرحي ، ولا قدرة لى على غير هذا ، وعندنا دكتورة أو ممرضة ولله الحمد » .

وقال الشيخ حسين : « ان طريقة أبناء العشائر فى اثبات حقهم هى القوة والسلاح ، فابناء المدن لولا سلاح العشائر لما أبقوا للفلاحين شبراً من الارض يمتلكونه . ومحاولتنا سوف لا تحبط اذا ضحينا بعدد من أبنائنا فى سبيل كسب حقوقنا » .

فقال ماجد : « اؤمل ألا يصل الامر الى حد استعمال السلاح ، فاعداؤنا الملاكون الكبار يريدون استملاك الارض فقط لا زرعها ، وهنا موطن ضعفهم وقوتنا ، ففى استطاعتنا استغلالها قبلهم . لقد دعانا مدير الناحية الى عقد اجتماع لتقسيم الارض وتحديدها ، ولعلى أتمكن من اقناعهم باقتسامها قسمة عادلة بحيث يأخذون ما يريدون احتكاره منها

ونأخذ نحن ما نريد زرعه ، وينتهى الأمر عند هذا الحد بسلام » .

« فأجاب زبالة : « لا تتفاءل مقدماً واعلم أنهم أناس من غـــير طينتك ، وأياك والتساهل أو التسامح ، فهم لا يرضون بغير أخذ كل ما بيدك دون رحمة أو شفقة » .

حان موعد اجتماع الملاكين فأصر سليم على أن يرافق ماجـد! مدججا بكامل سلاحه . وعقدت الجلسة في كوخ واسع في مزرعة من مزارع المجاورين المتنازعين .

كان ماجد أول من حضر ، ثم تقاطر المدعوون الواحد تلو الآخر ، وكان المدير يحتفي بهم ويخاطبهم بالقابهم الفخمة ، ويتبادل معهم النكات متبسطاً ، فكانوا يقابلونه بالمثل ، وكان بعضهم يغالي في المجاملات مـع كل الموجودين متغافلا عن ماجد ورفيقه قصدا . وشعر سليم بأنه وسيده بين هؤلاء كالايتام في مأدبة اللئـام ، وكان المدير يتجاهلهما قصدا ، ولاحظ سليم ذلك فقال لماجـد هامسا : « أتريد مني أن أهين هؤلا الكلاب ؟ » .

فقال ماجد : « حذار من تهورك يا صاح ، ولا تنطق بكلمـة واحدة ، فانني أعلم كيف أرد كيد هؤلاء الخنازير الى نحورهم » .

وتكامل عقد المدعوين وكانوا اربعة قدمهم مدير الناحية الى ماجد واحدا واحدا : السيد فرج العيدان يملك خمسين ألف مشارة في مختلف انحاء العراق ، والسيد احمد السامي يملك ثلاثين ألف مشارة أيضا ، وصالح بيك الجبر ، يملك نصف مليون دينار فضلا عن مزارعه الكثيرة وفخرى أغا الغالب وعنده قطعان من الماشية تغطي أراضي النهروان وله مزارع واسعة » .

ويظهر ان المدير أراد أن يخيف ماجداً بأسلوبه هذا ، وانتبه ماجد الى غرض المدير فأجاب ساخراً « وأنا ماجد رحيم محام بسيط ولا يملك شيئاً مطلقاً » .

وتبادل المدير نظرة مع الملاكين ، ثم بسط خريطة واسعة أمامه على منضدة قذرة وقال : « ان خمسة ملاكين قد أجروا ثلاثين ألف مشارة من أراضى النهروان التى تبلغ مساحتها النصف مليون مشارة ، وقد طلبت منى متصرفية اللواء أن أوفق بين مصالح هؤلاء المستأجرين ، فمع أن الاراضى واسعة جداً الا أن مدخلها الذى يحاذيكم ضيق لا يبلغ الخمسة كيلو مترات عرضاً .

ونهض ماجد والقى نظرة فى الخريطة وقال ، فى الامكان ارضاء الجميع لو جعلت هذه الوجهة مدخلا للجميع ما داموا كلهم يحاذونها ، فاذا نفذنا منها انبسطت الاراضى أمامنا انبساطا واسعا يترك مجال العمل لمن يريد أن يعمل » .

فانبرى فرج العيدان وأجاب : « لو عملنا بهذا الاقتراح لوجب علي أن أطيل مجرى الماء عندى خمسة كيلو مترات وهذا لا يوافقنى » .

وقال أحمد السامى « أما انا فقد حفرت مجرى الى الارض التى أزمعت تعميرها وسوف لا اتخلى عنه لاحد » .

وأضاف صالح بيك : « أما أنا فقد طلبت قطعة محددة وهى تمتد من يمين واجهة آل فريحة حتى تصل الى منتصف هذه الواجهة » .

ونهض فخرى أغا وقال : « أما أنا فانى أسد هذه الفتحة من اليسار فقد كان أبى يزرع هذه الأرض من قديم الزمان » .

وتبسم المدير وقال : « ترى من هذا أيها السيد ماجد بأنه لا منفذ لك الى هذه الارض وأنك قد سقطت فى مصيدة ، وهذا جزاء من يمتهن غير مهنته » .

فقال ماجد ضاحكا : « انى لم آت للمشاحنة أيها السادة فأنا أطلب منكم أن ترعوا مصلحة جيرانكم الفلاحين ، فالارض لهم لا لي وانتم اذا ساعدتموهم الآن كسبتم صداقتهم وانى أحب ان يكون التفاهم ديدننا بدلا من ان نلتجىء الى المنازعات والتشاحن ، وأحب أن أخبركم بأن أعذاركم واهية خصوصا وانكم جميعا لا ترغبون فى زراعة هذه الارض » .

فقال فخرى أغا : «ايها السيد انك حسن الظن بشركائك ، واعلم بأننا سوف لا نسمح لهؤلاء اللصوص بالنفوذ الى اراضى النهروان . أما كوننا لا نزرع هذه الارض فهذا من شؤوننا الخاصة » . واكفهرت سحنة سليم ومد يده الى خنجره ، فوكزه ماجد وطلب منه أن يهدأ وقال : « انى اطلب منكم أيها السادة انصاف هؤلاء المجاورين ، فهم كلهم فلاحون والارض حياتهم بل خبزهم اليومى ، وأنتم ملاكون كبار ، ومن سكنة المدن وصداقة هؤلاء أولى بكم . وتذكروا أنهم قد استدانوا وصرفوا مبالغ طائلة على نصب المكائن وحفر الترع فهل فيكم من يدفع هذه المبالغ ويقبل المكائن والارض على الاقل فيما لو تخلينا عن العمل ؟» .

ولمعت عينا صالح بيك وقال : « اذا تنازلتم عنها بربع الثمن فأنا اقبلها على شريطة ان تتنازلوا عن الارض أيضا » .

وقال احمد : « هذا لا يعنينا ، ففى استطاعتكم ان ترموها فى

النهر . وكل ما نريد ان نخبركم به بانه لا مجال للعمل لكم في النهر وان والاسترحام لا يفيد » .

ونهض ماجد وقال : « اني لا استرحم ايها السيد ، بل أحببت أن أرى مبلغ ما عندكم من حسن الجوار والانصاف ، أما وقد علمت بأنكم تنوون شراً ، فاعلموا بأن حقوقنا لا تقل عن حقوقكم بل تزيد عليها برغبتنا في العمل والتعمير أكثر منكم ، فالارض لمن يعرف كيف يستغلها لا لمن يحتكرها ويمنعها عن غيره ، وقد خاب ظنكم اذ ظننتمونى سهل المأكل ، وسنرى من منا يكون المنتصر » .

وأراد سليم ان يشفى بعض غيظه فقال لصاحب الوجه الاحمر المنتفخ : « سنرى يوم نلتقى في المستقبل من هم اللصوص أيها السيد المتباهى بمالك » .

وانتهت تلك الجلسة ، وقدم مدير الناحية تقريراً لمتصرف اللواء فحواه ان المتنازعين قد اتفقوا كلهم الا واحداً يريد أن يثير القلاقل والشغب في تلك الناحية » .

- ١٦ -

عقد ماجد مع شركائه آل فريحة جلسة فى حجرة المكـــائن ، وشرح لهم مؤامرة جيرانهم لتدمير مشروعهم والقضاء عليهم .

فقال زبالة : « هذا ليس بالجديد ، وكنت متأكدا من حدوثه ، ولكنهم ، بعد ان تعاقدنا مع الحكومة ، فقدوا سيطرتهم الســـابقة التى كانوا يخنقوننا بها ، فاننى اعتمادا على هذا العقد سأعمل رغم انوفهم » .

وقال سليم : « ان سرعة العمل ، ووضع اليد عـــلى هذه الارض الخالية هو ما سيكفل لنا الحق فى استغلالنا ، ويثبت اقدامنا فيها » .

فأجابه ماجد : « رأى صائب مستند الى أقوى دعائم القانون ، فعلينا بالاسراع فى العمل ، ولأجل ذلك فنحن بحاجة الى أمرين : مساعـدة فلاحينا أولا ، ومال نكمل به شراء الحبوب والادوات الزراعيـــــة الضرورية ثانيا ، وانتم تعلمون ان المال قد نفد ، وان لا حبوب عندنا قط » .

فقال الشيخ حسين : « ان مكائننا وانتاجنا المقبل مما يسيل له لعاب المرابين ، ففى استطاعتنا ان نقترض ما نريد منهم ، والربح بسيط هو ٣ بالمائة فى الشهر » .

فقفز ماجد مرتاعا وقال : « أهذا هو الربح البسيط ؟ وهل نحن مجانين لندفع مثل هذا الربح الذى يعد سرقة محضة ؟ » .

فاعترض زبالة : « لا حاجة للاقتراض وبالربا فنحن لا زلنا غير

متعاقدين مع بياع لبيع المحصول الصيفى ، والبياع يدفع لمثل هـذا المشروع خمسة آلاف دينار عن طيب خاطر ، دون ان يتقاضى فلساً واحداً ربحاً ، وكل ما يجب علينا مقابل ذلك هو ان نبيع حاصلنا الصيفى عنده » .

فوافق ماجد على هذا الاقتراح بسرور .

ونظروا الأمر الثانى ، وأراد ماجد ان يخبر مقدار تضامن الفلاحين في العمل معه ومع رفاقه ، فطلب رؤساء وحداتهم ، فقدموا وساموا ، وبسط ماجد لهم حقيقة الواقع دون خداع أو مواربة .

فقال أحدهم : « وهل هذا ما يشغل فكرك يا بيك ؟ سترى بنفسك كيف نعمل فى هذه الارض كالجان ، وسيرى أولئك الذين يريدون ان يسلبونا اقواتنا كيف نطردهم كالكلاب العقورة النجسة » .

وقال آخر : « نحن عبيدك ياسيد ماجد فمر تر عجبا » .

وقال ثالث : « اذا كنت تخشى ان يعارضنا أحد فى العمل فأنت واهم ، فلاحو هؤلاء الملاكين كلهم من أقاربنا ، وكلهم يود لو كان يعمل معنا في هذه الارض ولولا تعاقدهم مع هؤلاء لوجدتهم كلهم عندك ، سترى بنفسك كيف أنهم يساعدوننا بدلا من ان يكونوا ضدنا » .

وانبرى سواق المكائن وعمالها فقالوا : « ان العمل معكم ايها السادة يختلف عن العمل مع غيركم فانتم تشعرون بأنكم جزء منا دون ترفع ، واعلم يا ماجد بيك بأن كل هؤلاء الملاكين لا يدفعون لأمثالنا اجورا تساوى نصف ما تدفعون أنتم ، فنجاحكم نجاحنا جميعا نحن والفلاحين » .

وأضاف سليم : « وأرى ان نؤجر ساحبة بخارية (تركتور) لتعين الفلاحين على شق الأنهر » .

فاعترض آخر : « لا لزوم لهذه الساحبة فسنعمل نساء ورجالا واطفالا ليلا ونهارا حتى تثبت اقدامنا فى أرضنا » .

ونط الشيخ حسين وهو يقول : « سترى أيها السيد ماجد أننا سنستعين حتى بفلاحيهم أنفسهم فى حرث هذه الارض » .

ونهض ماجد وقد برقت عيناه سرورا وقال :

« انى فخور بكم بهذه الهمة ، ولكن أخبرونى هل عندكم سلاح ؟ » .

فأجاب سليم ضاحكا : « لدينا خمس بنادق ، وكل فلاح مسلح بخنجره ومسحاته ، وأغلبهم يملك سيفا يستطيع أن يطعن به ، ولكنى اعتقد ان لا حاجة لكل هذه الاحتياطات ، فالعمل سيتم بكل هدوء وبدون ضجة . لاسيما وانى قد أوصيت الرؤساء بالكتمان ، وسوف لا يصل الخبر الى أحد قبل انجاز العمل » ثم شرع سليم يشرح لماجد خطة الهجوم وأسلوب العمل . وما كاد يطلع ماجد على تفاصيلها حتى قال له مهنئا : « انك تصلح قائدا لمعركة أيها السيد سليم لا وكيلا لمزرعة » .

- ١٧ -

وقف ماجد ومعه الدكتور ورفاقهما آل فريحة فوق الرابية المشرفة على سهل النهروان وكانت الارض مبتلة ، فقد اطلقت المياه عليها مقدما مدة يومين كاملين واجتمع الفلاحون تحت تلك الرابية وكان عددهم يربو على السبعمائة .

وكانت الشمس قد برزت من خدرها فألقت أشعتها الذهبية فوق السهل فتلألأ كالمرآة وانارت وجوه اولئك الفلاحين الغبراء واصطف الفلاحون صفين على طول واجهة النهروان . صف من النساء يحملن غرائر الحبوب ، وصف من الرجال وراء محاريثهم ، ووقف سليم بجانب ماجد ، وبيده مسدسه مشهرا ليعطى اشارة البدء بالعمل . وما كادت الشمس تبرز بكاملها من وراء الافق حتى دوت طلقة نارية من مسدس سليم فتقدم الصف الاول ، وتحركت الايدى يمينا وشمالا مملوءة بالبذر تنثر الحبوب فوق الارض المنقوعة بالماء ، ومضى صف النساء يتقدم فى ذلك السهل ، وهن يهزجن بأصواتهن العذبة أهازيج حماسية مؤثرة ، وبعد ربع ساعة من حركتهن ، دوى طلق آخر ، فتحرك الصف الثانى يسوق أمامه الخيل تجر وراءها المحاريث فراحت تشق الارض الهشة المشبعة بالماء . وضجت أصوات الرجال تجيب على أصوات النساء بمقاطيع من اهازيج مناسبة . وتقدم ذلك

الصف كالجيش يحارب الجشع والأنانية والاحتكار .

والتفت الدكتور الى ماجد فقال : «ياله من منظر جميل حقا ! انهم ليفتتحون هذه الارض كما قالوا ، وما أجمله من انتصار بل ما أجملها خطة محكمة ! أنظر كيف تتحول الارض الرطبة الى حرث ولكن أيكفى هذا لاثبات الحب؟» .

فأجاب سليم : « ان الحب لينبت هنا بمجرد رميه وسقيه .فالارض بكر وهى خصبة ولود» .

وقال ماجد : لو استمر العمل أسبوعا كاملا على هذا المنوال بدون معارض ، لتم حرث خمسة آلاف مشارة ، اى نصف الارض المأجورة ، ولانتصرنا فى المعركة الاولى انتصارا رائعا» .

فقال زبالة وحسين : « ونحن منتصرون بعون الله » .

ولم يتوقف العمل فى ذلك اليوم لتناول الغداء ، فقد كان الدكتور وماجد يتناولان غذاءهما الخفيف وهما يتجولان بين الفلاحين كما كان هؤلاء الفلاحون يحملون الخبز والتمر فى جيوبهم ، ويشربون الماء من القلل المعلقة فى أعناق دوابهم .

وانتهى ذلك اليوم بسلام . وغربت الشمس فطلب ماجد من سليم ان يريح الفلاحين . فضحك سليم وقال : «اطلب ذلك أنت منهم اذا استطعت وسترى كيف يجيبونك» .

واستمر العمل طوال ذلك اليوم تحت أشعة القمر . ولما استيقظ سليم فى صباح اليوم الثانى وجد أن الخيل قد أبتعدت فى الافق حتى

كادت تغيب فيه ، وما كان العمـــل يتوقف لملأ أكياس البـــذور أو لاراحة الدواب فى فترات قصيرة .

وانتهى اليوم الثانى بسلام أيضا ، ورفض الفلاحون ايقاف العمل الا لبضع ساعات ناموا خلالها .

وبقى ماجد مع الفلاحين خلال مدة جهادهم المجهد وحده ، فقد عاد رفاقه الى أعمالهم في نهاية اليوم الاول لتلك المعركة . وفى ظهر اليوم الرابع ظهر شرطيان ومعهم مفوض ، تحملهم سيارة فخرى آغا ، وما كادوا يصلون الى القرية قرب الرابية حتى نزل فخرى آغـــا من سيارته وهو يزمجر وكرشه يهتـــز انفعالا ، ومضى يدعو بالويـــل والثبور على المعتدين الذين سرقوا ارضه وتجـاوزوا على حماه ، وتقدم مفوض الشرطة ، وطلب المسؤول عن العمل فتقدم ماجد منه وقال : «أنا المسؤول الوحيد عن العمل في هذه الارض ياحضرة المفوض» .

فقال الشرطى : «ان مدير الناحية يطلبك ايها السيد» .

فقال ماجد ساخرا : «أذهب اليه وقل له بأنى مشغول بالحـرث واذا كان لديه أمر هام فليبلغنى به تحريريا» .

فقال الشرطى : «لقد طلب منى أن امنع العمل فى الارض» .

فسأله ماجد : «واى أرض تعني؟»

فأجاب المفوض مرتبكا : « ارض النهـروان » .

فقال ماجـد : « أئتنى بأمر تحريرى ايهـــا السيد يجبرنى على الامتناع عن العمل لانى اعمل حسب مادة فى العقد بينى وبين الحكومة

تنص على أن اعمر الأرض المؤجرة خلال ستة أشهر والا سقط حقي فيها ، وها قد مضت خمسة أشهر على هذا العقد وليس هنا حدود أو موانع بين الاراضي المؤجرة ، فكلها جرداء بكر كما ترى فأنا اعمل لانى مؤجر وقد دفعت اقساطا مقابل هذه الارض » .

ولاح الغضب على وجه المفوض وقال : « لا شأن لى ايها السيد بكل هذا ، ولكن فخرى أغا قد ادعى ان الأرض ارضه » .

فألتفت سليم الى فخرى وقال : «هلا اخبرتنى عن حدود أرضك وأعلمتنى بتاريخ استلامها ايها السيد الأغا ؟»

فأجاب الأغا محتدا «نحن هنا منذ عشرات السنين ، نستأجر ونستملك دون معارض فمن أين قذفك الله فى اوجهنا ؟»

فقال ماجد « لعله قذفني لأدفع الظلم والاعتداء » . فقال فخرى وهو يكاد ينفجر غيظا : « انى لا أعرف كيف أتفاهم معك ، وسأرفع شكواى الى المراجع العليا » .

فقال ماجد: « أذهب حيث تريد ولكن تذكر ايها الأغا واخبر مديرك ايضا بأنى لست من العشائر وليس فى استطاعتك أو استطاعة مديرك ان يقيدنى أو يوقفني باسم قانون العشائر » .

- ١٨ -

تربع ماجد على بساط خشن وسط خيمته وكانت الاغصان الجافة التى تغذى النار تفرقع فترسل الشرر وامتلأ سماء الخيمة بغيوم متكاثفة من الدخان ، وزحف ماجد فوق بساطه مقتربا من النار ليستمد من وهجها مايطرد به تلك القشعريرة التي تمشت فى مفاصله ، واستغرب كيف لا يشعر بالبرد فلاحوه أنصاف العراة .

كان الفلاحون محتشدين فى الخيمة ونظراتهم تجتمع عند أبريق القهوة الضخم الذى كان يفور على النار ، وكان سليم يقذفهم بالسكاير قذفا بين حين وآخر ، فيتلقفونها بأكفهم كما يتلقف الطفل الكرة عند اللعب .

وطفق أحدهم وكان كهلا صلب العود يروى أخبار معركة ساهم فيها نشبت بين الجيش التركى وبين الجيش الانكليزى فى البقعة التى حرثها وكان يزداد حماسا كلما ازداد اهتمام ماجد بحديثه .

ورفع الفلاح بيده قحف جمجمة وعظم ساعد ،وكان قد أتى بهما ، وهو يقول : «عندما عثرت سكة المحراث بهاتين العظمتين تذكرت يوم طعنت جنديا انكليزيا بحربة بندقيتى فتعثرت باضلاعه الغضة قبل أن تغوص فى أحشائه ، لقد فاجأنا الانكليز يومذاك وهم لاهون ليلة عيد ، وكانت قناني المشروب امامهم أكواما . لقد رأيت بقاياها

بنفسك يا ماجد بيك وهي التى تساءلت عنها مستغربا وجودها بمثل تلك الكثرة قرب التل المقفر . لقد قذفونا بقنابيهم قبل ان يتناولوا سلاحهم ، ولازلت أتذكر زجاجة منها وكانت حمراء مفرطحة رماها في وجهى جندى أشقر الشارب ، فسال شيء منها على وجهى فلطعت قسما منه فوجدته مرا لا مالحا وعندها أدركت انه شراب الاعداء وليس دمى» .

وقاطعه رفيقه ساخرا : «وهل سكرت به ؟»

فأجابه : « وهل يسكر الانسان بالرائحة ويحك ؟» .وعاد الى قصته : « فهجمت عليه وقد أعمانى الغضب ، وطعنته بالحربة فتلقاها بيده بعد ان حاد عنها فنجا ، وشعرت بقبضته الحديدية تشد على عنقى فتناولت شعر رأسه . وكان طويلا واسعفنى خنجرى فدفنته فى بطنه باليد الاخرى ولازلت أذكر عينيه الزرقاوين وهما تنطفئان امامى . أقسم لك السيد ياماجد بيك أنى شعرت بشيء من الحزن عليه ماعلمت سببه ، وما ادرانى أن هذه العظام هى عظامه» .

وسمع خارج الخيمة دوى رصاص فقفز سليم وخرج ليستطلع الخبر ، ومالبث ان عاد وأمامه شخص يسوقه باللطمات سوقا ، ورماه أمام ماجد وهو يضحك قائلا : «هاك شخصا من أعوان جيراننا الاماجد سيروى لك طرفا من أخبار نبلهم وكرمهم» .

وتمتم الاعرابى خائفا وقال : « انا فى عرضك يابيك ، ولعنة الله على أجداد صالح بيك . لقد حرضنا على مهاجمتكم ليلا ، فاذا عفوت عنى اخبرتك بتفاصيل مؤامرة اخرى يدبرونها لكم» .

والتفت اليه احد الفلاحين وقال : «أما زلت تسرق ياحمد يا ابن الفاعلة ؟ ان اللص الصغير ينضوى تحت لواء اللص الكبير آخر الامر» .

فقال ماجد للص منتهزا خوفه : «سأسامحك لو أطلعتنـــى على مؤامرات أصحابك » . وقال سليم مشجعا مهددا معا : « ان حمدا عريق في مهنة اللصوصية . وبمجرد ان تسلمه للشرطة سيحكم عليه بالسجن .

واجاب الاعرابى موجها كلامه لماجد : اجتمع البارحة صـــالح بيك آل جبر ، مع فرج العيدان وقررا أن يهاجموكم ليلا ويسرقوكم وها نحن قد نفذنا ذلك وفشلنا . وفي الغد سيهجم عليكم فلاحوهـم ، ويسقون حرثكم ، ويدعون بعد ذلك بأن الحرث والبذر يعودان لهم ، وبهذه الواسطة يستحوذان على الارض والزرع معا وانطلقت ضحكة من حناجر الفلاحين وقال قائل منهم : « يحسبنا القوم جـ ذانا وسنربهـم من نحن غدا» .

- ١٩ -

بكر ماجد وفلاحوه والشمس تطالعهم من خدر امها ، وهم على أهبة الاستعداد ، وكان سليم قد وضع خططه ووزع أوامره ليلا واطمأن ماجد الى اجراءات رفيقه ، دون أن يكلف نفسه عناء تمحيصها فقد دلته التجارب على أنه ابن بجدتها .

توزع الفلاحون فى ذلك السهل المحروث وهم عالمون بما اختطه أعداؤهم وبما اعتزموا ، ووقف ماجد وسليم على تلك الرابية العالية التي صار يسميها رابية القيادة ، وبيده منظاره المقرب ، وقال لسليم دون ان يخفى اضطرابه : « أخشى أن يتمادى هؤلاء المجرمون فى غيهم فتنشب بين الطرفين معركة تذهب فيها ضحايا كثيرة » فأجابه سليم هازلا : « سترى بنفسك جبن هؤلاء الانذال ، فهم المعتدون والمعتدى جبان » .

وما كاد سليم ينهي كلامه حتى رأى ماجد خرقة ترفرف في الهواء فوضع منظاره على عينيه وقال : « أترى ؟ هذه هى العلامة المتفق عليها؟» .

فقال سليم : « تلك هى » . وأسرع الاثنان الى مطيتيهما فركباهما ، وانطلقا نحو مصدر الاشارة . ورأى ماجد وهو فوق حصانه المسرع بأن الفلاحين يتجهون مثله ركباناً وراجلين نحو تلك الاشارة ، وما كادا يقتربان حتى رأيا جمهوراً من الفلاحين متجهين نحو فلاحيهم بين راجل وفارس ، وبأيديهم المساحى والمعاول وبعضهم مسلح بالبنادق .

وهمز سليم جانبى فرســـه فانطلقت به نحو أول القادمين فناداه باسمه وسأل عن قصده من دخول الأرض المحروثة بفرسانه . فأجاب : « نريد أن نسقى هذا الحرث بأمر الحكومة » .

فقهقه سليم وقال : « وهل خولتك الحكومة أن تأخذ حصانى أو ثوبي ايضا ؟ أجب يا ابن الفاعلة ؟ » . وهجم عليه بهراوته ، فرجع الاول القهقرى ورفع رفاق سليم مساحيهم على الاثر وانشدوا هازجين :

بس يأمر ماجد نفنيها
والله بدمكم نرويها
وجماجم راح نزرع بيها
كلنا لك صالح خليها

ثم هجموا على الهاجمين هجمة واحدة ، ورأى ماجد أن عددا من المهاجمين انقلب على رفاقه ، وانضم الى فلاحيه الذى أعملوا المعـــاول والمساحى فى أقفية المعتدين الهاربين ، وبعد أن كان ماجد ورفيقـــه يحرضان فلاحيهم على طرد المعتدين ، انقلبا الى محاولة انقاذ الهاربين من ضربات فلاحيهم المنتقمين القاسية ، ولكن ذهبت محاولتهما هباء ، فقد طورد المعتدون حتى عقر دورهم واحتل رفاقه المنتصرون مكائن صالح وفرج وعندها صاح بهم سليم منذراً : « حذار من الهدم والتخريب » .

فكفوا وما كادوا يصنعون شراً . وقال بعضهم وهم يلتفون حول ماجد : « لولا أمرك بالكف عنهم لدمرنا منازلهم وأحرقنا مكائنهم » .

وظهر فى تلك اللحظة من بين بيوت الفلاحين الهاربين أربعة من

رجال الشرطة الخيالة ، فتقدم ماجد من أحدهم ، وسأله أكان حاضراً تلك المعركة فأجاب ضاحكا : « أجل ، ونعلم بهذه المؤامرة كلها ، واعلم اكثر من هذا أيها البيك بأننا قد أوصينا بمساعدة المعتدين ولكننا نعلم أن هذا غير جائز ، وأننا لو فعلنا لاحتملنا وحدنا نتيجة هذا الاعتداء ، ولتملص رؤساؤنا منه رغم أنهم قد امرونا به . أجل أيها السيد اننا لا نجهل بأن هذا اعتداء محض وقد سررنا بانتصاركم ، بل لقد هزجنا مع فلاحيكم واننا لنتمنى لكم الموفقية » وحار ماجد فى أمره وقال لسليم « حقاً انه لأمر عجيب ، وانى لا أستغرب مطلقاً لو قدم مدير الناحية تقريراً لمتصرفه يتهمنا فيه بالاعتداء والاغتصاب والهجوم على الآخرين ، بل وربما بمحاولة سلبهم ونهبهم ، وبذلك يدعي بأننا لصوص ضد القانون » .

وهكذا حدث بالفعل فقد أسس مركز للشرطة فى تلك المنطقة بطلب ملح من مدير الناحية والملاكين المجاورين ، بعد أن ادعوا بعرائض وتقارير ، بأن المزارعين الجدد وفلاحيهم يهددون أمن المنطقة كلها وأن مراقبتهم واجبة حفظا للامن .

- ٢٠ -

دخلت هيفاء غرفة الاستقبال فى دار خطيبها الدكتور حسام ، فنهض ماجد لاستقبالها • وقال الدكتور : « ها قد عاد البطل بعد الانتصار • انه يحمل كما ترين ، ثأر المعركة وشعار القتال » •

كان ماجد مغبراً وقد لفحته الشمس فشابت سمرته حمرة خفيفة ، وطال ذقنه وشارباه ، وكانت ألوان ملابسه الخشنة قد اختفت تحت طبقة من التراب ، وقال هو يصافح الدكتورة مبتسما : «لقد قدمت توا ، بعد أن أمضيت كل هذا الاسبوع في المزرعة بين القلاقل والمشاكل وكان بودى أن أذهب الى منزلى أولا لأزيل من مظهرى ما يدخلنى في صنف قطاع الطرق • ولكن الشوق ساقنى الى دخول المنزل • ولم أستطع مقاومة الاغراء لما مررت بالباب • فقذفنى الشوق داخلا وأعمانى عن آداب التمدين » •

فقالت هيفاء : « لو ذهبت الى دارك ، واصلحت من شأنك لخسرت صفقة • فقد طلبت احدى قريبات الدكتور أن تتعرف بك بعد أن تحدثنا عنك ، وعن انتصاراتك المتتالية أمامها هذا الاسبوع • لقد قرأت لك شعراً ونثراً مما تنشر فى الصحف ، وسمعت بأخبار مشروعك الأخير ولعلها تكون فى الطريق الآن » • فقال حسام : « خابرتها عند مجيئه وسوف لا تتأخر فمنزلها قريب » •

ووثب ماجد مرتاعاً وقال : « أهى مؤامرة علي ؟ . وكيف تقدمانى الى سيدة وانا في هذه الحال ؟ » .

فحال الدكتور بينه وبين الباب وقال : « نريد أن نكافئك على رفعنا الى طبقة ذوى الأطيان وذلك بتقديمك الى صديقة صدوقة لعلها وحدها تستطيع ان تنقذك من الجنون لو انهارت اعصابك ، فى هذه المعارك غير المتعادلة التى تخوضها ، واعلم أنها من طراز يعجبك وأعتقد أنك تروقها وأنت معفر . بل ستأسرها ذقنك الطويلة وسيفتنها وجهك المغبر » .

فتوسل ماجد يقول : « بربك ليس هذا وقت المزاح ، وسوف لا أتأخر عنكم أكثر من نصف ساعة » . وتقدم نحو الباب وهم بفتحه ، ولكنه فتح قبل أن يصل اليه ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام امرأة متوسطة القامة مستطيلة الوجه سمراء ورأى نفسه يتطلع فى عينيها رغم أنفه ، ووجم قليلا ، وهو ينظر الى عينيها اللوزيتين الحالكتى السواد .

ومد يده دون تردد وقال : « لعلك السيدة قريبة الدكتور التى تآمر مع دكتورته على أن يعرضانى أمامك ممسوخاً ؟ » .

وسمع ضحكة عذبة وصوتاً حنونا يجيب : « أما المؤامرة فأنا مشتركة فيها ولكنها لم تدبر لاظهارك أمامي ممسوخاً كما تقول . انى أرى عليك آثار العمل يا سيدى الاستاذ ، هذه التى تذمها تدل على أنك تضع جسمك ونفسك وروحك فيما تعتزم انجازه ، وهى صفات نادرة فى هذا البلد الخالى من الحماس » .

وقال ماجد فاغر الفم : « هلا أدركت أن صوتك أيتها السيدة يشبه جوقة موسيقية تعزف معا ، انه شيء عذب لم اسمع بمثله » .

وضج الدكتور مقهقها وقال : « ليست القاعدة أن يبدأ الرجل فى مغازلة المرأة عند أول مقابلة أيها الاستاذ » .

فقال ماجد « لقد خرقت القاعدة أنت أولاً ياسيدى الدكتور ، فليست العادة أن يقدم الرجل لسيدة لأول مرة وهو بهذا الزي الذى يدل على تحول الأفندى الى فلاح » .

وقالت هيفاء للفتاة : « لقد أدرك هذا المحامى الخبيث موطن الجاذبيه فيك عند أول لقاء . وقد ظننت ان انهماكه فى مشاريعه قد أنساه ذوقه ولطفه » .

ويظهر أن الفتاة كانت من طراز الثلاثة فيما يتعلق بالانبساط وعدم التكلف والظرف فقالت لماجد : « لقد توهم السادة الدكاترة بأننا معارف قدماء فلم يقوموا بواجب التعارف حتى الآن ، أما أنت فأشهر من نار على علم . ولكن يجب أن تعرف عنى أكثر من كونى امرأة ذات صوت موسيقي وعينين يطال النظر فيهما . فها انذا أقدم نفسي : « اسمى سنية حسن . مدرسة في احدى المدارس الثانوية للبنات ، ولي قرابة بعيدة بهذا الدكتور ، وصداقة وطيدة مع هذه الدكتورة ، ولا أعلم لماذا لم يقدمانى لك قبل الآن ؟ » .

فقال ماجد : « هؤلاء الدكاترة يا سيدتى يعتقدون أن المرأة بالنسبة الى الرجل دواء لا يتناوله الا عندما يمرض ، ويزعم قطاسينا الحاذق ان

اعصابى مهددة بالانهيار ، وقد راقه ان تكون الوصفة أنت » .

وقالت هيفاء : « أنتبه يا أستاذ ماجد عند حديثك مع سنية فهى آنسة وليست سيدة » .

فقال ماجد وقد انبسطت اساريره : « ان الرجال هنا عديمو الذوق » .

فاعترض الدكتور بقوله : « ولماذا لا نقول انها هى نفسها رفيعة الذوق ؟ » .

مضت الفتاة تحدث ماجد دون حياء أو تكلف ، فأدرك على الفور بأنها تختلف كثيراً عن بنات جنسها اختلافاً يلفت النظر ويوجب الاحترام وأعجبه منها عدم اهتمامها بالفارق الجنسى بينهما ، وما لبث أن أدرك أنها اعمق ثقافة من أمثالها .

سألته باسمة بصوتها العذب : « اذن فانت ايها الاستاذ تحاول ان تكون اقطاعيا لأنك أردت ذلك ، وتظن ان الأمور ستنساق اليك انسياقاً هينـاً ؟ » .

فأجاب ماجد : «اني احاول ان اكون اقطاعيا دون ان اظـن ما ذكرت من سهولة » .

وقال الدكتور : « انه كعادتـه اذا اراد امراً مد يده لتناوله . وتروى أمه انه رأى القمر وهو صغير فأعجبه وطلب من أمه ان تناوله القمر ، فحارت الأم ماذا تفعل ، فرفع عقيرته بالبكاء وما زال يبكي حتى احتالت عليه بأن اتته بطبق فيه ماء ، وقالت له : «هو ذا القمر» . ونظر فى الماء فرأى القمر فعلاً فيه . وعندما كبر صار يحاول أن يحقق كل ما يتمناه دون أن يهتم بالمصاعب والمشاكل عند الاقدام على ذلك ، ولكنه يجابهها بجرأة ثم يحل كلا «منها الواحدة تلو الاخرى» .

فقالت سنية : «صفات طيبة حميدة ولكن من أتباع الشاعر الذى يمتدح من لايقدم على الورود قبل ان يعرف الصدور • وعلى كل فتجربة الاستاذ او تجربتكم جميعا ذات فائدة عظمى وارجو الا تقدم له الثروة فى طبق مملوء بالماء ايضا» •

فقالت هيفاء لماجد : « الاستاذة مولعة بدراسة الاقتصاد وفنونه ، حتى أصبحت لكثرة تعمقها فى هذا العلم تتكلم دون أن يفهمها احد ، فأصبحت بذلك قاب قوسين او ادنى من تهمة الشيوعية » •

فاعتدل ماجد مهتما وقال : انا اعترف مقدما بجهلى للنظريات الاقتصادية ، وسأنزل لك عن عرش الزعامة على أصحابى الدكاترة ، فأنا تابع منذ الآن ، بل تلميذ مطيع ، فهلا خبرتنى ايتها الاستاذة على أى منهاج يجرى الاقتصاد فى هذه المملكة ؟ وكيف يصح ان تمنع الارض عمن يريد أن يزرعها ، وتمنح لمن يريد ان يحتكرها فحسب ، رغم غلاء اسعار الحبوب ومستلزمات المعيشة » •

فقالت سنية : « لا أريد ان أخاطر باعطائك درسا ، وانت الكاتب المعروف فى الحقول الاجتماعية ، وكل ما أعلم من احصائياتنا المشوهة الناقصة ، انه يصعب ادخال العراق جملة فى صنف من أصناف الامم التي تتبع نهجا واضحا فى اقتصادياتها ، فقسم من العراق لازال قريبا من دور البداوة الاولى ، وقسم منه يحيا حياة قبلية ، وبعضه قد دخل في دور الاقطاع ، وفى المدن نجد حركة صناعية نامية ، وبعض المعامل تكبر فتشير الى نمو الرأسمالية • وفى هذا الخليط العجيب ، تجد الآراء

الحديثة والمبادىء السياسية العصرية تتخبط ، فتستقر حينا ، ثم تشوه او تمسخ وترمى جانبا ، واهم من كل هذا ان شكل الحكم فى هـذا القطر لاصورة واضحة له ، فلسنا نعلم أمستقلون نحن أم مستعمرون ؟ فبيننا من الرجال الذين عليهم العمدة ،من يعتقد أننا لانعيش لحظة بدون الانكليز ، وبعضنا يؤمن بأن لنا دستورا وقانونا يجب اتباعه والتمسك به . وان عندنا من الاستقلال ما يكفى للمحافظة عليه . اما الشعب فلا يهتم مثقال ذرة بالحكم ورجاله ، ونظره لايتعدى حاجياته الآنية فان وجدها استكان واستقر راضيا ، وان لم يجدها انفجر مطالبا بطريقة ابتدائية فجة . أما بريطانيا ذات المصالح هنا فيهمها ارضاء ذوى القوة وهم فى نظرها المتمولون ورؤساء العشائر ورجال الاقطاع . أما المشتغلون بالسياسة من الشبان المثقفين فهم يحاولون ، رغم قلة تجاربهم وعدم اهتمامهم بالواقع ورغم سعة الخيال عندهم ، ان يخلقوا حركة سياسية عصرية بين أفراد الشعب ويجعلوا ذلك قاعدة ليقيموا استقلال البلاد ونهضتها ولكنهم سيقاسون كثيرا ، وسيفوزون بالنتيجة حتما .

فأنت ترى ياسيدى الاستاذ المحامى ان امثالك يمكنهم النجاح في جمع الثروة والتحول من طبقة الى أخرى ولكن بالصدفة وحدها ، ففى مثل هذا المجتمع لايسير شىء على قاعدة» .

وقال ماجد ضاحكا :" ياله من تشجيع . اذن فانت تعتقدين ياسيدتى بأننا وضعنا مصيرنا فى كف عفريت " . فقالت : « هذا

ما أعنى بالضبط ، فقد بلغنى أنك تناجز اقطاعيين يستطيعون أن يبتلعوك لقمة سائغة لو ارادوا ، ولكنك تفلت من بين اسنانهم بمعجزة» .

فقال ماجد : « أى اننى اشبه القديس الذى قتل التنين فى الخرافات المسيحية أو كادمس الذى قتل التنين الهائل حين قفز وراء اسنانه وأعمل سيفه بحنجرته كما جاء فى اساطير اليونان » .

فضحكت سنية وقالت : « بالضبط أيها الاستاذ فأنت بطل خرافي والتنين هو الاقطاع الضخم أو رجاله الذين تعرفهم » .

فقالت هيفاء : « خير لك ان تتسلح بحقن من الابر السامة في قتل تنينك العصري أيها السيد » .

فقال ماجد : « ولكنى أعتمد على القانون والنشاط والرغبة فى فائدة المجتمع » . فقالت سنيه : « لا تغالط يا أستاذ ، ولست اخالك طفلا تؤمن بأن هذه الامور وحدها تكفل لك النجاح ، فأنت محام ، ولابد أنك قد رأيت بصورة عملية قوة هذه القوانين التى تعتمد عليها» . فقال الدكتور : « يا للعجب ! انها تتكلم مثل زبالة الأمى ، وتؤمن بنفس نظرياته ، رغم ثقافتها الواسعة فما اغرب الأمور ! » .

فقالت سنية : « وما وجه العجب ؟ ان هذا الأمى الذى تتحدث عنه غارق فى مشاكل القوانين حتى اذنيه ، اذ هو فى تماس دائمى بها . وما يحصل عليه من نظريات نتيجة تجاربة الطويلة ، وشدة احتكاكه بالمعاملات الرسمية ، تجعله يعطيني ويعطيك درسا عمليا فى حقيقتها» .

فقالت الدكتورة « اذن فأنت تشيرين بما يشير به ، أي باتبـــاع الطرق المعوجةغير المشروعة للوصول الى الهدف » . فقالت سنية : « لا أعني هذا بالطبع ، فمثل هذا الاعرابى الامي يصل الى الحقيقة ولكنه لايعرف كيف يعالجها معالجة دقيقة شاملة بل يكتفى بالعلاج الوقتـى الذى قد يضاعف الداء» . فقال ماجد : «مرحى ايتها الاستاذة . يمينا انك لقطة ثمينة ، ولعنة الله على هذا الدكتور الذى يخفى كنوزه عـن أعين أصدقائه ، فهل تقبلينى صديقاً ، ولى أن أحذرك بأنى ملحـــــاح مضجر ؟ » .

فأجابته مبتسمة : « لقد قبلتك مقدما ، وسننظر في أمر الحاحك وعلاجه رأيا مفيداً فيما بعد » .

- ٢٢ -

أحدث هجوم ماجد ورفاقه العنيف رد فعل عند جميع أرباب الارض فى تلك المنطقة فتألب عليه القريب والبعيد ، واخذوا يشنون عليه هجوما عنيفا لا هوادة فيه ولا لين ، فقد غاظ بعضهم ان يؤخذ على حين غرة ، ونقم قسم منهم عليه لانه بعمله الجديد قد أفسد عليهم عمالهم وفلاحيهم ، على زعمهم ، وذلك بدفعه لامثالهم الاجور العاليه والحصص الكبيرة .

واتحدوا وصمموا على أحداث تخريب واسع النطاق فى أعماله بأساليب شتى منها أنهم سدوا مرة احدى قناطره واغرقوا الجادة العامة المجاورة لها ، فانتهزها مدير الناحية فرصة لتغريم سليم غرامة باهضة .

وكسروا مرة أخرى مجرى مائه واطلقوه على أرض احد المجاورين فأغرقها واتلف قسما من حاصلاتها ، فقامت قيامة صاحب الارض واقام دعوى على الشركاء يطالب بتعويضات جسيمة . واغاروا مرة على مكائنه بغية تدميرها ، ولو لم يردهم العمال برصاص البنادق لنالوا بغيتهم وغفل عمال المكائن مرة عن غرفهم التى يسكنونها فسطا عليها أناس مجهولون بعد أن ثقبوا جدارها الطينى وسرقوها هذا فضلا عن الدعاوى الاجتماعية التى قدمت ضده من قبل جيرانهم المنافسين المختلفين معهم

على تقسيم الارض . وقدم مدير الناحية تقريرا شديدا مدعيا بأن ماجد ورفاقه يستخدمون ذوى السلوك السيء من فلاحين وعمال بغية القيام بشغب واسع النطاق ، واحداث قلاقل كثيرة للسلطات الادارية ، وقال بأنه غير مسؤول عما يحدث اذا لم تتخذ وزارة الداخلية احتياطات كافية لايقاف تلك الشرور عند حدها .

وكانت تلك المقاومة تزيد من عزيمة ماجد ورفاقه وتقوى فيهم روح الكفاح وتزيدهم تكتلا وتماسكا .

واطلق اعداؤهم سهما جديدا من سهام قوتهم ، فالتجأوا الى الوساطة والمحسوبية وساق كل منهم كل من يعرفه من موظفين كبار ، وسادة أماجد ومتنفذين وغزوا بهم متصرفية اللواء وقدم كل منهم شكواه وكانت الشكاوى كلها متماثلة . واشتغلت دوائر المتصرفية بهذه الشكاوى ، وكان غيظ متصرف اللواء يزداد شيئا فشيئا حتى بلغ منتهاه وارسل وراء ماجد يطلبه .

ودخل ماجد ديوان متصرف اللواء فرأى البيك الحديث العهد بهذه المتصرفية ، وهو أحد الاقوياء بمن ينتسب اليهم متجهما . ففاتحه بقوله: «انى اعرف عائلتك ، واعلم انك رجل شريف ، وانه لايليق بك أن تعمل مع هؤلاء اللصوص وتسيء الى سمعتك وسمعة اهلك» .

فأجابه ماجد محتدا : «انى اعمل مع اشراف لاغبار على سلوكهم أو على سمعتهم وانى أعمل عملا قانونيا فيه فائدة عظيمة للبلاد» .

ثم مضى يبسط له عمله ومؤامرات جيرانه عليه فلان المتصرف

قليلا ثم عاد فنصحه بقوله : أرى ان أسس المشكلة هى خلافك مع مدير الناحية • ورغم علمى بانه موظف صغير الا أنى انا نفسى لااستطيع ان اقف ضده فيما لو أراد ان يسىء اليكم ، واعلم ان التفاهم معه أولى فلسنا فى وضع يساعدنا على التحقيق فى كل صغيرة وكبيرة يدعيها ضدكم» •

فقال ماجد : « ولكن ماوجه التفاهم معه اذا كان يخضع للمؤثرات الخارجية بتأثير الرشوة ونحن أناس لانؤمن بهذا المبدأ فى العمل ، واحب ان تعلم بأن قانون الرشوة قد أخذ يتضعضع فى هذه الناحية من يوم بدأنا بالعمل فيها ،وهذا ماسبب نقمة كل الموظفين هناك فقد قطعنا مورد رزقهم الحقيقى • ولاأبالغ اذا قلت بأننا قد أثرنا نقمة بعض الموظفين فى دائرتكم نفسها» •

وشعر ماجد بأنه قد تجاوز الحد لما رأى تقطيب المتصرف وحدته حين أجاب : «اعلم أيها السيد ماجد بانني لاأحب ان اسمع طعنا لايسنده دليل فى موظفي دائرتى ،وأنى اسامحك للمرة الاولى على شرط ان لا تتمادى في أسلوبك الهجومى وانصحك بالتفاهم مع الموظفين • وأعلم بأنى لا استطيع مساعدتك اذا تماديت مع رفاقك فى هذه الخطة الهجومية تجاه جيرانك وتجاه موظفى الدوائر المختلفة • وأرى قطعا لدابر هذه المشاحنات ان أقرر بنفسى تقسيم الارض بينكم وتعيين حدودها، فاذا لم يرضكم ذلك وضعت الحدود قسرا واجبرتكم جميعا على عدم الاعتداء بعضكم على بعض» •

فقال ماجد :«أننا المعتدى عليهم من قبل الجيران الموظفين قاطبة ،

واني أعلم مقدما أن النفوذ والوساطة سيعملان عملهما ولكننا سندافع عن أنفسنا بالقوانين وسوف لانلتجيء الى اية طريقة أخرى غير قانونية مهما عد عملنا خارقا للعادات المألوفة والطرق الاعتيادية ،وانى أعلم بأن الحق معنا ، ولكني اعلم ايضا بأن السلطة والنفوذ والجاه ضدنا فهي معركة بيننا وبينها وسنرى لمن تكون الغلبة» .

- ٢٣ -

قرر ماجد ورفاقه أن يحتفلوا بانتصـــارهم الأول في المزرعة ، واختاروا لذلك يوم جمعة مشمس ، مـــن أيام كانون الثانى ، وكانت الدعوة مقتصرة على الشركاء المعروفين بالاضافة الى سنية العضوة الجديدة بين الجماعة .

كان اليوم مشرقاً رائقاً تسطع شمسه فى سماء صافية لازوردية ، فتخفف من حدة برد هذا الشهر ، فتجعله أشبه بأيام الربيع .

وانطلقت السيارة التى تقل الأصدقاء ناحية المزرعة فى الصـــباح المبكـــر .

وكان ماجد يصغى الى أحاديث سنية ويرتشف كلامها ارتشافاً فيتغامز الدكتور والدكتورة بخبث .

ومضت سنية تقول جادة : « هى كما قلت معركة بين العمـــل الصالح والقانون من جهة ، والموظفين والاثرياء والمحتكرين وعملهم الفاسدة من جهة أخرى ، واعلم ايها السيد ماجد ان معسكرك ضـعيف جداً ، فاذا أردت ان تتقي اذى الصدمات العنيفة المفاجئة فضع اســوأ الاحتمالات امامك ، والا ذهبت بقواك الصدمات» .

فضحك ماجد واجاب : يمينا لقد فعلت . فقد وضعت الافلاس

امامى كأسوأ الاحتمالات ،، وكذلك افلاس الدكتورين المحترمين» .

فالتفت حسام وقال : « مرحى أيها السيد القدير . انك تعزم وتصمم ، ثم تأمر وتنهى ، ثم تغنى وتفقر كما تشاء . انك ترين يا سنية أننا مسلوبو الارادة تجاه عناد هذا الرجل ، وانى أريد أن ننتقم منه بتسليطك عليه ، وتلك حيلة العاجز كما ترين » .

ومضت السيارة تنهب الطريق الخربة ، ونسيم الصباح العليل يمسح أوجههم وينعش نفوسهم .

وقالت هيفاء : « لو لم نتورط فى مشروع ماجد لما قدر لنا أن نقوم بهذه النزهات الصحية بضع مرات فى السنة ، وهى لعمرى تصقل العقل وتهذب الشعور » .

فانفجر حسام ضاحكا وقال : « لو تماديت في تبرير أعمال ماجد أكثر من هذا واختلقت له الاعذار فستثار غيرتى واطلبه للمبارزة » .

فقالت هيفاء :

« يروقنى أن أراكما تقتتلان من أجلى ، ألا تشعرين بمثل شعوري يا سنية ؟ » .

فأجابت سنية مبتسمة : « الحقيقة انى لا يلذني أن يحصل نزاع بسببى . فالنزاع يكون عادة على الاسلاب . ولست منهم » .

فهتف حسام محبذا : «مرحى» يامن لست امرأة بعقلك» .

ووصلت السيارة الى المزرعة واستقبلهم منظر مدهش فريد وانبسط أمامهم بساط أخضر يمتد حتى الأفق . لقد انقلب ذلك السهل

الذى كان أجرد قبل خمسة اشهر ، الى بساط سندسى تتماوج فوقه الزروع النضرة بفعل النسيم كبحر واسع .

واستقبلهم اصدقاؤهم بحفاوة بالغة .

وقال زبالة وهو يكاد يرقص : « تعلمون أيها السادة أى ربح عظيم وسيكون لكم من وراء هذا البحر المتلاطم من الزرع» .

فقال الدكتور : « فكر بالمشاكل أولا أيها السيد زبالة » .

فقال زبالة : « لاتهمنى مشاكل الدنيا أيها الدكتور ما دام هذا الزرع بيدى ، فاذا لم أعط الارض فسأنافس جيراننا المثرين بالمزايدة فان مدة أحدهم ستنتهى قريبا ، والربح المقبل سيمكننى من أعناقهم جميعاً » .

وتوقف زبالة ناظراً الى الفتاة الجديدة وقال : « السيدة هى خطيبه الأستاذ اليس كذلك ؟ » .

فقهقه الدكتور وقال وهو يغمز بعينيه خطيبته « واذا لم تكن كذلك فكيف تصاحبه وتأتي معه الى هنا أيها السيد زبالة ؟ » .

وتمتمت سنية : « لعنة الله عليك ! » .

وقال ماجد لزبالة : « قبل أن تسأل عن هذه وتلك ، عليك أن تعلم أن قرار المتصرفية قد صدر بتقسيم الأرض ، وقد وزعت القريبة منها مع المدخل على منافسينا فكل هذه القطعة المزروعة أمامك لاتملك منها سوى الزرع الذى فيها ، أما أرضنا فتقع وراءها بعيداً ، ولا يمكن الوصول اليها ، وحينما طلبت من المتصرف أن يخبرنى كيف تستغلها،

أشار الى أحد بنود المقاولة بيننا ، وهو الذى يحرره من مسؤولية ايجاد المجاري ، وقد أجابني فخرى أغا ضاحكاً شامتاً : « يمكنكم أيصال الماء اليها بالطيارة» .

فهتف الشيخ حسين : « لقد وضعنا أقدامنا وزرعنا متواصل وعليهم أن يرفعوا أقدامنا عن الارض اذا استطاعوا قبل أن يحلموا بطردنا ، وليس ثمة قانون يعينهم علينا » .

- ٢٤ -

بدا على ماجد هياج هائل وهو يذرع الغرفة ذهاباً وايابا ، ومضى سائق مكائنه يقص عليه الخبر المفجع بلهجة أسف ومرارة : « لو كنت أعلم ما أبطنه المفوض من سوء القصد لما طاوعته ، ولو كان يمثل كل قوى العالم . لقد طلب مني أن اريه تينك الآلتين الدقيقتين اللتين يتوقف عليهما عمل المكينتين ليتفرج عليهما وكنت أمسحهما ، فناولته الأداتين بحسن نية واطمئنان ، فما كان منه الا ان وضعهما في حقيبته ، وأخبرني بأنهما محجوزتان بأمر مدير الناحية » .

وانفجر ماجد هادرا : « يا للأنذال ! ليس لهم حق قانوني مطلقا بهذا العمل » .

وقال زبالة : « ان الزرع لو أنقطع عنه الماء مدة أسبوع في هذا الشهر فسيهلك حتماً . وهذا هو الذي جعل أعداءنا يختارون هذا الشهر بالذات ، اذ يكفيهم أسبوعان لاهلاك كل ما لدينا من الزرع » .

وتساءل الدكتور: «ولكن بأي عذر سيبررون عملهم هذه المرة؟» .

فأجاب ماجد : «لقد كسر أحد مجاورينا الماء على زرعه عمدا ، فأستفاد من الماء في ارواء الزرع ، وبدلا من أن نشكوه بسبب سرقة الماء سبقنا فشكانا مدعياً بأن مجرانا يؤذي زرعه ، وأراد مدير الناحية

أن يتدخل ، فابنت له أن القضية تخص المحاكم ، ولكن هذا الجار الخبيث أقام الدنيا وأقعدها ، وتوسط برئيس الوزارة نفسه ، اذ له علاقة ببعض أصدقائه لدفع الضرر الموهوم ، فخابر صاحب الفخامة متصرف اللواء طالبا مساعدة المشتكى ، واهتم المتصرف ، فخابر مدير الناحية طالبا منه دفع الضرر ، فما كان من هذا الأخير الا أن أعلن المتصرف عجزه عن مقاومتنا ، واقترح على المتصرف ان يوقف مكائننا عن العمل فسمح له بذلك . ولكنهم قد أوقعوا أنفسهم فى ورطة عظيمة .

وقال زبالة « سيتكبدون كل الأضرار التي تلحقنا من جراء هذا العمل ، وليست هذه اول قضية غلبت فيها الدولة » .

فقال ماجد « انني اخشى من شيىء واحد وهو أن تتملص الدولة من مسؤولية هذا العمل وترميه على عاتق مدير الناحية ، وفى هذه الحالة نحكم على المدير بدفع الضرر ، وهو موظف لا نستطيع حتى حجز راتبه ، فنكون قد خسرنا محصولنا بأكمله مقابل حجز أثاث بيته الذى لا يساوي مائة دينار ، وهذا ما يتوق اليه اعداؤنا » .

وقال الدكتور : « يالها من خطة جهنمية ، ولكن ألا نستطيع أن نشترى اداتين صغيرتين عوض المحجوزتين ونعود الى العمل ، مادام المنع غير قانوني ؟ » .

فتنهد الشيخ حسين وقال بائكسار : « هذا ما خطر لى ، وقد درت الأسواق بأجمعها ، فلم أعثر على واحدة ، وقد حاولت استعارة مثلهما من جيراني فلم أجد ما يماثلهما نظراً لضخامة المكينتين » .

وقال ماجد ليس لنا الا طريقة واحدة هى أن نهدد هذا المدير بالقانون وسأبلغه بأنذار رسمى بأنه مسؤول عن الضرر هو ودائرته لعله يرعوي .

وتحفز سليم وقال : « هنالك خطة أخرى وهى أن أذهب الى هذا المدير فأدخل دائرته وأطلب منه الاداتين باللين ، فان لم يفعل ضربته حتي يغمى عليه ، وسأسجن طبعاً ، ولكن هذه الحادثة قد تجلب نظر الحكومة الى سوء ادارة هذا الرجل » .

فقال ماجد : « حذار من خططك الهجومية ياسليم ، واعلم أنك لو فعلت ما تقول لايدت تقارير مدير الناحية هنا ، ولأثبت للملأ أننا كما يقول لانرعى حرمة لقانون ، ولا نهتم بالادارة ، ولا بموظفيها ، وبهذه الطريقة تعطى لمقابلك فرصة للطعن فيه ، وثغرة منها ينفذ اليك ويدمرك كما اني أوصيكم جميعا بعدم التحرش بأحد بأساليبكم الهجومية » .

وعاد سائق المكائن يقول : « ارجعوا الى هاتين الأداتين مرة أخرى والويل لمن يحاول أخذهما منى بعد الآن ، ولو أتانى أحد هؤلاء الكلاب مرة أخرى فسأجعله طعمة لعجلات المكينة » .

- ٢٥ -

قال الدكتور حسام وهو يحتسى فنجان الشاى أمامه : « ها قد تحققت تنبؤات سنية يا ماجد . فقد كانت تنتظر كل هذه المقاومة سلفاً ، ولكن كيف استطاعت ذلك بهذه الدقة ؟ » .

فأجابت سنية ضاحكة « ليس فى الامر مهارة أيها الدكتور ، فانى أعلم مصالح الطبقة التي تتضرر بعملكم ، أعلم مدى سلطتها وقوتها . ولست خيالية بحيث أفترض وجود الانصاف ، والعدل الى غير ذلك من أقوال الوعاظ ، فالنتيجة كما ترى كفاح عنيد فى سبيل مصالح متضاربة ، والأقوى هو الغالب » .

فقالت هيفاء : « ما أشبه ذلك بتنازع البقاء فى عالم الحيوان ! » .

فقالت سنية : « هناك فرق واحد هو أن التنازع فى عالم الحيوان يحدث بين الاجناس المختلفة ، والحيوانات التى تعيش معيشة اجتماعية كالنمل والنحل لا تتناحر أفراده بل تتعاون . ويشذ الانسان عن هذه القاعدة حسب الظاهر ، ولكنه فى الحقيقة لا يشذ ، فما نراه تطاحناً بين الأفراد والأمم سوف لا يدوم كثيرا فى حياة الانسان ، فالتنازع هنا يكون بين الانظمة لا بين الافراد ، وسيفوز فى النهاية النظام الذى يكفل انعدام التنازع الفردى ، ويؤيد التضامن الاجتماعى بين أبناء البشر

جميعاً فلا شك أن ذلك العهد سيكون بداية فجر جديد فى تاريـــخ الحضارة الانسانية » .

وكان ماجد يصغى الى نبرات صوتها الموسيقى : بلذة وشغف ، وما لبث أن قال : « انك لتدخلين علينا بمحاضراتك الاجتماعيـــة الناضجة السرور ، وتطلقين افكارنا من عالمنا الضيق الى عالم أوسع ، بحيث تهون علينا المصائب الفردية ، وحتى الاجتماعية فأى حظ عظيم رماك فى طريقنا فى مثل هذا الوقت العصيب ! » .

وقال الدكتور متباهياً « بل قل أى رجل عظيم فكر بادخالها فـى مجتمعنا ، فلماذا تغمط حقوقي أيها الاستاذ ؟ » . فضحك ماجد وقال : « أجل يصح ذلك لو استطعنا أن نمتدح الفرد اذا ما نطق بكلمة فصيحة صدفة وهو يعوى ويهمهم واعتبرناه انساناً » .

وقال الدكتور مصطنعا الغضب : « انى احتج أيها المحامى على غمطك حقوقى فأنت قد أضعت ثروتنا ، ثم تريد أن تنكر علينا عقلنا » .

فقال ماجد : « وما تقصيرى اذا كنت واحداً منكم ، فاقبلني فى زمرة القرود معك أيها الدكتور » .

ووقالت سنية : « كفى مزاحاً أيها السادة ، وخبرنى أيها السيـد ماجد عن محاولاتك القانونية لانقاذ زرعك » .

فقالت هيفاء : لقد وقع ما تنبأ به هو أيضا . فقد رمت وزارة المالية المسؤولية على عاتق المتصرف ، ورماها المتصرف على عاتق مدير الناحية .

وخاف مدير الناحية من النتيجة فقال بان المتصرف هو الذى أمر بهذا العمل ، وفشل بدعواه اذ ليس عنده مستند قانونى ، واستمرت الدوائر تتجادل حتى مضى شهر كامل على الزرع المسكين الذى حرم من الماء ظلماً فذوى » .

فقالت سنية « ان تدمير مزرعتكم لوحدها ليس بذى قيمة للمصلحة العامة لو وقف الامر عند هذا الحد ، ولكن الجراد يجتاح المزارع فى كل مكان ، وهو ينبىء بموسم صعب . فاذا أضفنا ذلك الى تدمير مزرعتكم التى لها ما يماثلها في كل مكان وصلنا الى نتيجة مرعبة ، فقد نجد الطبقة الفقيرة تموت جوعاً فى السنة القادمة » .

فصاح ماجد : « يا الهي ان هذه العملية لم تسبب ضرراً لنا وحدنا ، فانى اشعر بأن هذا الاحمق قد قتل بعمله مئات من الناس لا الزرع لوحده . انى ادرك الان فقط لماذا يفقد سليم صوابه فيهدد بالقتل والانتقام لشخصه بنفسه ، فقد كدت أصل أنا أيضا الى هذه الدرجة من اليأس القاتل » .

فقال الدكتور : « انك لا تصل اليها ما دامت الاستاذة تعظك وتحاضرك بصوتها الموسيقى ، وما دام القانون الذى درسته يقيدك ويطلق أيدى اعدائك لتكيل لك اللطمات بدون حساب » .

فقالت سنية : « القانون هو دائما عون للقوى على الضعيف ، وها قد رأيت ذلك بنفسك أيها الاستاذ ماجد » .

فقال ماجد لسنية : « لقد كدت لا تبقين على شيء من احترامي لشخصي واعتزازي بدراستي ، حتى لقد أوشكت أن اعتبر نفسي قرداً حقاً » .

فقالت سنية : « اهتم بأصدقائك الفلاحين ، واسترشد بآرائهم ، واجتنب الغرور فلعلك تنجو معهم باعجوبة » .

- ٢٦ -

اجتمع الدكتور حسام وزبالة ومدير الناحية فى عيادة الاول ، وقدم زبالة مدير الناحية للدكتور ، فسلم الدكتور على عدوه المتجبر سابقاً المتخاذل لاحقاً .

قال مدير الناحية ووجهه شاحب ونظارتاه تهتزان فوق أنفه ، وهو يرتجف : « أقسم لك أيها الدكتور بأنى لم اقصد أن اسىء اليكم وليس بينى وبينكم عداء شخصى ، ولكن ما عسانى أصنع لكم وقد تألب عليكم كل أرباب الارض وجبابرة المال ، يظاهرهم أكبر المتنفذين فى الدولة ؟ وانتم تعلمون جيداً بأن المتصرف قد خابرنى بنفسه شخصيا لايقاف مكائنكم ، فهل كنت استطيع أن أفعل غير ذلك ؟ وما فائدة ادانتى فى المحاكم بعد أن تملصت الدولة من المسؤولية وتخلصت من دفع التعويض بوضع اللوم كله في عنقى ؟ انكم اذا ما حكمتم على بدفع الضرر الذى يقدر بعشرات الالوف من الدنانير فانكم لا تحصلون فعلا الا على بضعة عشر دينارا ، هى قيمة أثاث بيتي . وان راتبي ثمانية عشر دينارا وهو غير قابل للحجز قانونا كما تعلمون . وكل ما املك لا يساوى مائة دينار ، فمن أين تنالون ما تريدون من العوض ؟ » .

فقال الدكتور : « وهل تعنى أيها السيد المدير أننا نتركك بسلام بعد أن احدثت هذا التدمير المريع ؟ » .

فقال المدير : انى سأنفعكم كثيرا اذا ما تخليتم عنى ، فلو وقفت فى صفكم لزرعتم في الموسم الصيفى دون معارض زرعا يعوض لكم ما خسرتموه كما أنى اكفل لكم أن تصبح الارض التى تصرفتم بها من جملة الاراضى المؤجرة من قبلكم ، فذلك بيدي » .

فقال الدكتور : « أهي رشوة ؟ » .

فاعترض زبالة وكان يصغى منتبهاً : « أيها الدكتور أنها فرصتنا ، وليست خسارة موسم واحد بالشيء المذكور فى تاريخ المزارع ، وسوف لا نحصل على شيء اذا أصررنا على دعوانا . أما اذا سامحناه فان عملنا سيكون احساناً فى رقبته ، ولو وقفنا ضده لأحدث فى أعمالنا تدميرات أخرى أعظم خطرا من هذه ، فهو يستطيع أن يخمن حصة الحكومة من الزرع المتبقى عندنا أضعافا مضاعفة ، فيجبرنا على شراء حبوب غالية تقدم بنصف ثمنها للحكومة ، كما انه يستطيع أن يشجع الفلاحين على الهرب بما عندهم من ديون ، وذلك بمجرد عدم الاهتمام بتعقبهم ، وغير ذلك ، وأرى ان نحل التفاهم محل الخصام مع حضرة المدير ، ونتبادل المصالح » .

وقال المدير منتهزاً تلك الفرصة : « انى رهن اشارتكم ، واذا ما تخلصت من الورطة التي أوقعنى فيها الملاكون الكبار والموظفون الكبار فأني أعدكم بشرفى بأنى سأخاطر حتى بوظيفتى فى سبيل مساعدتكم » .

فأجابه الدكتور ساخراً : « شرفك وحده لا يكفينا أيها السيد بل نريد ضمانا آخر ، فمن الذى يكفل لنا بأنك لا تنقلب علينا بعد أن تتنازل لك عن حقوقنا فى الدعوى المقامة عليك ؟ » .

فقال زبالة : « الأمر بسيط سوف نبقي الدعوى معلقة حتى تنتهي مشكلة الارض ، وننتهى نحن من بذار الموسم الصيفى » .

فقال المدير : ومن يكفل لى أنكم ستتنازلون بعد هذا ؟ » .

فقال زبالة : « اننا تحت سلطتك دوماً تستطيع أن تصنع بنا ما تشاء بأساليبك غير القانونية ، فيما لو خالفنا الشروط المتفق عليها ! » .

فقال المدير « الحقيقة انى أعتمد على شرفكم وعلى مجرد وعدكم» .

فقال الدكتور : « الحقيقة انك تعرف أن شرفنا يعنى شيئاً بالنسبة لنا » .

وتجاهل المدير تلك الاهانة وقال : « بقى أن يقتنع الاستاذ ماجد فهل تكفلون اقناعه وهو العنيد المتصلب ؟ » .

فقال الدكتور : « عندى طريقة لاقناعه وأستطيع أن أعطيك وعداً بأن الاتفاق بيننا قد تم » .

وقال زبالة لحسام ضاحكاً مستبشراً : « اعلم انك ستحمل خطيبته الأستاذة على اجباره على القبول ، وهى وحدها تستطيع أن تقنعه » .

فضحك الدكتور وقال : « اجل نتعاون أنا وخطيبته عليه » .

- ٢٧ -

حوصر ماجد فى داره ، وضرب حوله رفاقه وشركاؤه نطاقاً ضيقاً لاضعاف مقاومته ، وانضمت سنية الى الجبهة المحاصرة .

وبسطت لماجد الحجج ، وقامت عليه البراهين ، وكان زبالة ، اذا لاح له شبح اليأس ، نظر الى سنية مستجيراً ، واتفق الدكتور مع الدكتورة فلم يسخر أحدهما من الاخر خلافا لعادتهما بل صرفاهما الى اقناع ماجد بوجوب المثابرة ، وترك اليأس جانباً .

وأخيراً سلم ماجد بمطاليب رفاقه وقال : « فلنفرض أننا تركنا عقاب المدير فى سبيل الاستمرار على العمل فمن أين نأتى بالمال ، وأنتم تعلمون ان آخر درهم فى جيوبنا قد نفذ ؟ » .

فأجاب زبالة مستبشراً : « ما دمت قد رضيت بالاستمرار على العمل ومهادنة المدير ، فما أسهل ايجاد المال ! » .

فقالت سنية : « اذا كنت تعنى بالسهولة الاقتراض من المرابين بسعر ثلاثة بالمائة فى الشهر فليس الامر سهلا كما تقول » .

فقال زبالة : « انى اقدم لكم خمسمائة دينار ، ولا يعنيكم من أين احصلها » .

فأضافت هيفاء : « ونحن نقدم ثلاثمائة قد كسبناها هذه السنة والفضل فى ذلك لتفشى الاوبئة والطواعين » .

وقالت سنية : « أيها الاخوان هل تقبلون شريكاً جديداً ؟ » .

فسألها ماجد بلهفة : « ومن هذا الشريك الجديد الذى يقبل أن يشترك فى عمل يوشك أن يقضى نحبه ؟ » .

فقالت سنية : « أنا هو هذا الشريك ، وعندى خمسمائة دينار أقدمها بسرور ، وسواء عندى خسرت أو ربحت ما دامت تعطى فرصة اخرى لهذا المشروع » . فقال ماجد : « أنا لا اسمح لك بذلك ، ولا أرى من حقنا أن نسلبك ما ادخرته » .

فقالت سنية مبتسمة : « وبأى حق تمنعني أيها الاستاذ ؟ أظنك قد توهمت أنت بأنى خطيبتك كما توهم شريك لك من قبل ، فراق لك ان تفرض ارادتك وأوامر علي » . فاحمر وجه ماجد وقال : « انى لا القى أوامر ، واذ آصر الرفاق على قبول تضحيتك فسأنسحب من المشروع نهائيا » .

وهنا انبرى الدكتور فقال : « واذا قبلت سنية ان تكون خطيبتك فهل تقبل منها الدراهم ؟ » . فضحك ماجد وقال : « الامر يختلف حينذاك وعند ذلك فقط استطيع أن ابرهن للاستاذة على أنى لا افرض ارادتي لا على الخطيبة ولا على القريبة ، وأوامرها حينذاك مقبوله على الرأس والعين » .

فضحكت سنية وقالت : « اذن قبلت خطبتك أيها الاستاذ العنيد

مقابل قبولك مساهمتى فى الشركة » .

فوثب ماجد فرحا وقال : « لا يهمنى الان خسرت المزرعة أم ربحت ، انى احمل كلامك يا سنية على محمل الجد وسألزمك به » .

فقالت سنية : « انى جادة فيما أقول على شريطة أن تجد فى العمل فلا تتساوى عندك الهزيمة والانتصار ، ولا بأس من التضحية في سبيل التجارب العلمية » . فقال زبالة : « لا تهمنا مبرراتك أيتها الاستاذة وماجد خير زوج لآنسة مثقفة مثلك » .

فقال الدكتور كمن يشكو ويتظلم : « هاكم انسانا عمليا استطاع أن يتزوج امرأة راقية ، ويربح فوق ذلك خمسمائة دينار ، أما أنا فقد خسرت الوفا وقبلت امرأة تهددنى كل يوم . أيتها الدكتورة انى سأثور على الظلم ، وسوف لا أقبل أن أكون دون ماجد » .

فأجابت هيفاء ضاحكة : « سأعطيك الف حقنة تحوى ملايين الجراثيم لأجرب انا أيضا فيك تجربة علمية من نوع آخر » .

فقال ماجد جذلا : « اطرحا الشجار أيها الدكتوران ، واعلما بأنى سأبيع دارى لأدخل المزايدة ضد فخرى أغا ، وسأصول وأجول حتى أنقذ هذه المزرعة مادامت الاستاذة تظاهرنى » .

فقال زبالة لسنية : « اذا كان ثمة فضل فى انقاذ المشروع فهو لك أيتها الاستاذة ، وسأقدم الفا بدل الخمسمائة ، ما زال الاستاذ قد قبل منازلة فخرى أغا ، فالاغا لا يصرع بسهولة » .

فقال ماجد : « سنصرعه حتما يا أبا حسن » • وقال الدكتور : «أما أنا والدكتورة فلا نستطيع أن نقدم أكثر مما قدمنا ، فهيا الى الصراع وسنصفق لكما حين تنتصران • ان ماجداً قد أصبح (شمشون) بعد أن وجد دليلته ، خلاف شمشون التوراة الذى فقد جبروته بعد أن تزوج دليلة » •

- ٢٨ -

ازدحمت قاعة المزايدة فى متصرفية لواء بغـــداد بالمزايديـــن والمناقصين والفضوليين والمتفرجين ، وكان ذلك اليوم هو اليوم المعـــين لاحالة القطعة التى كانت مؤجرة لفخرى أغا من أراضى النهروان ، وهو ذلك الجزء الذى تجدد أجاره مراراً دون أن يزرع ، والذى كـــان مجهول الحدود فأصبح محدداً لقطع الطريق على ماجد ورفاقه . وكان فخرى أغا يحتج كل مرة يطالب فيها بالاجرة بعدم استلامه الارض ، بعدم زرعها وبغير ذلك من الحجج الواهية التى يحوكها له مدراء المال والواردات ، لقاء بضعة دنانير ، ليستند عليها فى عدم وضع الأجار .

وكان فخري أغا بين الحاضرين ، وسلم على ماجد وزبالة سلاماً حاراً غير مألوف فاجابه زبالة ساخراً : « فى هذا اليوم يتقرر مصيرنـا ومصيرك ، وسنرى هل فى استطاعة الدولة أن تمنعنا من المزايـــدة ضدك ايضا » .

فقال فخرى أغا : « ان الذنب في شدة المقاومة ضدكم هو ذنب بقية المجاورين لا ذنبى أنا » .

وسحب الأغا ماجداً وانفرد بـــه وهمس فى أذنه أن الارض لا تجديك يا ماجد بيك ، فاذا كنت ترغب فى المزايدة لتحصيل بعض المال

كأغلب الحاضرين ، فإني مستعد أن اعطيك مائة دينار الآن على شرط أن تتخلى عن المزايدة » .

فنظر اليه ماجد مهتاجاً ، ثم تركه وهو يقول : «حقا انكم بشر من طينة غير طينتي ، كما يقول هذا الاعرابي الذى تريد منى أن اخونه » .

والتحق رفيقه به فرآه يبتسم ويقول : « لقد حاول أن يرشوك ، أليس كذلك ؟ لولا خوفي من الشرطة لبصقت فى وجهه » .

وأعلن الدلال بصوته الجهوري : « خمسة آلاف مشارة من أراضى النهروان لمدة ست سنوات بمبلغ مائة دينار على فخرى أغا »هل من مزايد ؟ » .

فتقدم ماجد ورفيقه من المنصة التى جلس وراءها متصرف اللواء ولجنة ادارة مجلسه ، ومدير الواردات وقال زبالة لرفيقه هامساً : «وجه له ضربة قوية عند أول دخولك المزايدة فهو جبان » .

وأعلن ماجد « علي بخمسمائة دينار » .

فلهث فخرى اغا مرتاعاً ، وسقط القلم من يد مدير الواردات ، وتهامس أعضاء المجلس ، وتطلع المتصرف فى وجهه مستغرباً .

وأراد مدير الواردات أن يتأكد من قول ماجد فقال : « وأين التأمينات يا سيد ماجد ؟ » . فرمي ماجد على المنضدة ورقتين من فئة المائة دينار وقال « أيكفى هذا ؟ » .

فقال مدير الناحية « واحدة تكفى » .

فقال ماجد احتفظ بالاخرى ، فان المعركة سوف لا تنتهي بسهولة ولكني اراك لم تطلب من فخري آغا التأمينات القانونية ؟ » .

فقال مدير الواردات : « انه ملاك كبير وهو مؤتمن عندنا » .

فقال أحد اعضاء مجلس الادارة مبتسماً : « ارى أن رزمة الاوراق المالية التي في جيب السيد ماجد ضماناً أقوى » .

وأضاف فخري آغا عشرة دنانير على المبلغ الاخير بصوت مرتجف يوجب الرثاء .

فقال ماجد : « الف دينار » .

وابتلع فخري آغا ريقه واضاف : « عشرة دنانير » .

فقال ماجد : « ألفان » ورمى ورقتين اخريين من ذوات المائة .

فتمتم مدير الواردات : « هذه مصارعة وليست مزايدة » .

وقال فخري موجهاً كلامه لمتصرف اللواء : « أرجو أن تؤجل المزايدة يوماً واحداً لاتفاهم مع ماجد بيك ، وربما اشتركت معه في هذه الارض فنحن جيران ، ومن مصلحة الادارة ان نتفاهم وتنتهي المشاكل بيننا فلا يقاوم بعضنا بعضاً » .

فقال المتصرف : « لك ذلك » .

فقال ماجد : « أنا لا اتفق مع فخري أغا اتفاقاً يخل بمصلحة الخزينة، وتوقيف المزايدة فيه فائدة لنا لكن فيه ضرراً كبيراً للحكومة» .

فقال المتصرف : « لست حريصاً على مصلحة الخزينة أكثر منا واذا اردت المزايدة أكثر من هذا فموعدنا الجلسة القادمة » .

وتأبط الأغا ذراع ماجد قسراً ، وخرج به من القاعة ووراءهما زبالة ومضى يقول له : « أنا أعلم أنك تريد المزايدة لايجاد منفذ الى أرضك فى النهروان ولكن لماذا لم تتفاهم معى قبل المزايدة ؟ لقد كان بوسعك أن تأخذ ما تريد من هذه الارض بسعر زهيد بل مجاناً لو بقى سعر الارض على حاله أى مائة دينار لمدة ست سنوات فانظر كيف تضررت وضررتني أيضاً بعملك » .

فقال ماجد : « لماذا تغالط ؟ فهل هو انا الذى رفض هذا التفاهم ، أو لم اطلبه منك في جلستنا الاولى ؟ .

فقال زبالة : « لقد توهم الأغا أنك لا تستطيع أن تدفع اكثر من ٢٠ ديناراً للتأمينات » .

فقال الأغا : « بل قد علمت يا أبا حسن أن عمه مجدى باشا قد وضع كل املاكه تحت تصرفه » .

فبغت ماجد . ولكن زبالة وكزه بكوعه محذراً ، فعلم ماجد أنها مناورة أخرى من مناورات زبالة ورفاقه للضحك على ذقن الأغا واضعاف مقاومته .

والتفت اليه الاغا وقال : « وما هى شروطك يا ماجد بيك للتخلى عن المزايدة ؟ فقال ماجد : « أنت تعلم ما اريد . انى اريد منفذاً الى أرضى يخترق أرضك ، ولا تقل مساحته عن الاربعمائة مشارة على أن يكون ذلك مقابل قطعة مساوية من أرضنا المجاورة لك والتى حددتها

لنا المتصرفية » .

فقال فخرى أغا : « على الرأس والعين » .

ومر مدير المال فى تلك اللحظة بهما فقال له فخرى أغا : « لقد اتفقت أنا وماجد بيك يا أبا سعد » .

فتبسم الأخير وقال : « الحمد لله » .

- ٢٩ -

في شهر نيسان ترتدي بغداد أكاليل من أزهار الليمون وتتعطر بشذاه المسكر ، ويمتلىء النهر بمياه دجلة الحمراء كما يمتلىء الجسم بدماء الصحة والعافية . وقد ينتفخ دجلة في بعض الأحيان وتعلو مياهه حتى يهدد المدينة بالغرق ، ويكون النسيم رطباً منعشاً هفهافاً .

وليس في بغداد في مثل ذلك الوقت بقع أجمل من تلك المقاهي الصغيرة المنتشرة على طول ساحل النهر في شارع أبي نؤاس ، تلك التي تشبه شرفا خضراء ممتدة على طوله .

في واحدة من هذه الشرف جلس ماجد مع صديقه الدكتور حسام عصر يوم المزايدة ، ومضى ماجد يضحك رفيقه برواية أخبار تلك المزايدة ومحاولات فخرى أغا التي تشبه محاولات الثعلب عندما يطبق عليه الشرك بأسلوبه الفكه . ثم خاضا في شؤونهما الخاصة ، وتكلما عن زواجهما وكانت علامات الغبطة والانشراح مطبوعة على وجهيهما .

ولفت الدكتور نظر ماجد الى أعرابي كان يهرول في شارع أبي نؤاس ، ويتلفت يميناً وشمالا وقد بدت على وجهه أمارات قلق ولهفة .

فقال الدكتور : « هو زبالة ، ان وجهه ينذر بالشر . لقد صرت أتشاءم من مرآه » .

وصاح ماجد ينادى الاعرابي بأعلى صوته . فأسرع زبالة اليهما كمن وجد ضالته وهو يقول لاهثاً : « لقد بحثت عنكما في كل مكان حتى كدت ايأس . ان ما أحمل من اخبار ذو خطورة شديدة » .

فقال ماجد : « خير انشاء الله » .

فقال زبالة : « أنت تعلم بأنى لم أترك المتصرفية فى صباح هـذا اليوم . ولكنك لا تعلم بأننى فعلت ذلك لانى لا اثق بفخرى أغا ، واعلم الشيء الكثير عن أساليبه المنحطة ، وأعرف من أخباره ما يجعلنى لا اطمئن اليه . لقد دخلت على مدير المال بعد ساعتين من تلك المزايدة ، فأخبرنى ساخراً بأن الارض قد احيلت على فخرى أغا لوحده بمبلغ ألفى دينار ، وقد أكملت المخابرات الرسمية التي تتطلب عادة شهراً فأكثر ، بمدة لا تزيد على ساعتين » .

فقال ماجد : « اذا صح ما تقول فقد سقطوا في الفخ ، فأن عملهم هذا مخالفة صريحة لنظام المزايدة ، وفيه غبن عظيم للخزينة ، وسأريك كيف أفضحهم . ان هذه هى فرصتنا للانتقام منهم ، انها بمثابة القبض على السارق متلبساً بجريمته » .

فانبسطت أسارير زبالة وقال : « هذا ما أتيت لأجله ، فأرنا همتك يا ماجد بيك ، ورد كيدهم الى نحورهم » .

وفى غداة ذلك اليوم قصد ماجد متصرفية اللواء ودخل على المتصرف رافع الرأس وقال له دون مقدمة : « سمعت أن الارض احيلت على فخرى أغا دون أن اكف يدى عن المزايدة فهل الامر صحيح ؟ » .

فبهت المتصرف وأجاب : « ولكن فخرى أغا قد ادعى بأنه تفاهم معك وأقنعك بالانسحاب من المزايدة » .

فقال ماجد ساخراً : « وهل يكفى كلام خصمى في المزايدة لتقرير النتيجة ، وهل يعقل أن يكون الخصم وكيلاً عنى ، وتقبل وكالته حتى ولو لم يكن لديه ما يسندها ؟ » . فتلعثم متصرف اللواء وقال : « أرجو أن نسوى هذا الخلاف بالحسنى ، وسأحقق مطاليبك بدون احداث ضجة » .

فأجاب ماجد : « انى اريد أن احدث هذه الضجة لاري وزارة المالية كيف تقف الحكومة بصف الملاك الكبار ، وتداس مصالح الناس ومصالح الحكومة فى سبيلهم . وتذكر يا سعادة البيك أنك لم تقصر فى عرقلة أعمالنا فى سبيلهم ، وهذه فرصتى لاظهار الحقائق سافرة ، وللدفاع عن نفسى وعن مصالح رفاقى . » . وخرج لا يلوى .

قدم ماجد على الفور عريضة الى وزير المالية يشرح له فيها أخبار تلك الخيانة الصريحة ، وقامت دوائر وزارة المالية وقعدت عند الاطلاع عليها ، وعللتها بوجود الرشوة وسيطاً فى الأمر ، كما أنها طلبت من متصرف اللواء ايضاحاً ...

وحدثت ضجة كبيرة فى المتصرفية وبدأ الرؤساء يتنصلون ، كما هى عادتهم ، فالقى المدير المسؤولية على الصغير وحاول الرئيس ان يتهم المرؤوس ، وبقيت التهم تدور والحقائق تثور ، حتى تجمعت الزوبعة

فوق رأس موظف صغير في تلك الدوائر فتقرر فصله من منصبه ، واحيلت الارض على ماجد بالسعر الاخير ، وأتى فخرى اغا وقد اسقط فى يده ، وطلب من ماجد أن يتفاهم معه ، وسلم بكل شروطه ، مقدماً فقد كانت تلك الارض ضرورية له يكمل بها مزرعة من مزارعه الواسعة ، اذ قد نصب مضخات كبيرة لغرض اسقائها ، ولا يكمل ذلك بدون هذه القطعة ، وتشاور ماجد وزبالة وقررا أن يأخذا ممراً من تلك الارض مجاناً ويعطيا الباقى الى فخرى أغا وكفاه عقوبة خسارته عوض المجرى وتحمله ذلك السعر الفاحش .

- ٣٠ -

قالت هيفاء لسنية : « يستحق ماجد أن يكافأ على انتصاره الاخير في الجولة الاخيرة . لقد صرع فخرى آغا وأعطى الدوائر المستهترة بواجباتها درساً سيبقى في ذاكرة موظفيها مدة طويلة » .

فقال الدكتور : « ألا استحق أنا أيضا مكافأة ؟ وهل نسيت انه لو لاى لما عاد البطل الى العمل ؟ » .

فأجابت هيفاء « بل لولا الاستاذة لما عاد الى العمل بمثل هذه القوة وهذا النشاط ، ومع هذا فسننظر في أمر مكافأتك أنت أيضاً ، قبل ان تاكل الغيرة قلبك » .

فقالت سنية ضاحكة : « وماذا تقترحون أن تكون هذه المكافأة ؟» .

وهنا انبرى ماجد فقال : « أنت محورها أيتها الاستاذة فهى بيدك» .

فقالت سنية : « قل ما تريد بصراحة اذ يظهر انك قد دبرت مع الدكتورة مؤامرة علي » .

فأجاب حسام : « اذا كنت تحسبين المطالبة بتنفيذ الوعود مؤامرة ، فهي مؤامرة ، انى اشعر أيتها الاستاذة أنك أرقى من أن تخضعي لقيود الزواج وشروطه ، وقد قبلت خطبتى كما تعلمين ، فاذا كنت جادة فلماذا لا نسرع بالزواج اذ اخشى ان تفلتى من يدى ؟ » .

فضحكت سنية وقالت « ان الرقى لا يتنافى مع الزواج ، وأنا لا أرى فى الزواج قيدا ، وما يشترط علي سيشترط عليك ، وأنت تعلم أنى موظفة ، ولا اخالك تطلب منى أن اترك التدريس لاخدم فى دارك ولا تخش أن افلت من يدك ، فقد قبلتك مختارة ، ولست انت أول خاطب ولكنك ستكون الاخير • ولو كنت راغبة عنك لاخترت غيرك قبلك ، فأنا حرة فى اختيار من أريد ، وكل ما أريد منك مساواة تامة فى حقوق الزوجية ، حتى فيما يخص حق الطلاق • ولا اخالك ترفض ذلك ، فانا لست أقل شأنا منك فى الحياة الاجتماعية ، ولست أقوى منى اقتصادياً » •

فقال ماجد : « أقبل كل ما تريدين رغم أنى أخشى من المساواة فى الطلاق ، فلست أدرى متى تسأمينني وتقررين ان تتزوجي غيرى » •

فقهقهت سنية وأجابته : « تلك أوهامكم معشر الرجال ، فأنتم الذين تملون ، وخصوصاً منا اذا انعدمت شخصية المرأة أمامكم ، ان هذه المساواة كفيلة بأن تجعلكم تشعرون بقيمة شريكتكم فى الحياة ، فتحرصون على الاحتفاظ بما فى ايديكم » •

وأضافت هيفاء :«هذا من حق كل امرأة ، وسأحذو حذو الاستاذة أنا أيضاً ، فأقطع بذلك لسان هذا الدكتور الوقح، اذا ما أراد ان يتطاول علي بالكلام أو يسخر منى كعادته » •

فقال الدكتور : « يا للمصيبة ، لقد أردنا الاستاذة عوناً فأصبحت فرعوناً ، ولا مفر من قبول هذه المصائب ، فمتى قررتما أيتها الانستان

أن تصحبا سيدتين ؟ ان الاسراع يا ماجد كفيل بأن يخفف عن عبء شروطهما ان أخشى أن تبتكرا فى كل يوم شرطا جديدا » .

فقالت سنية : « لا مانع عندى بأن يتم الزواج غدا ، ولو لم يكن وقت الدوام فى المحكمة الشرعية قد انتهى لجعلته اليوم » .

فحملق الدكتور فى وجهها وقال : « أتعنين اننا نتزوج هناك أمام القاضى بدون دعوة أو اعلان أو احتفال ؟ » .

فأجابت سنية : « او لا ترضى ان نخفف عنكما عبء المصاريف التى لا فائدة منها ؟ فننقذ جيبكما من اغارة الاصدقاء الذين ستدعونهما ليأكلوا ويشربوا ويقلقوا الجيران بالضجيج والعجيج ، ويخرجوا وكل منهم يبدى من الآراء فينا ، والانتقاد لارائنا واعمالنا ما يزعجنا مدة طويلة ؟ أنى أفضل أن اقضى أسبوعا فى المزرعة فى مثل هذا الموسم على كل ما تحب احداثه من ضجة » .

وقالت هيفاء : « ها أنت ترى أيها الدكتور أن الامر قد أصبح فى صالحك ، والا لخسرت مبلغاً كبيرا اذ لست ممن يرضون بالنزر اليسير » .

وقال ماجد « اذا أردت ضجيجا فان الفلاحين سيحدثون منه ما يكفيك في الاسبوع القادم ، فان سليم سيتزوج فى هذا الاسبوع » .

فقالت سنية اذاً فاستعدوا للذهاب الى المحكمة غداً وسيكون ابن عمي حميد معنا ليكمل الشهود وسيكون بعضنا شهودا على البعض » .

وبكر الاربعة وخامسهم ذاهبين الى المحكمة غداة ذلك اليـــوم ، وملأ ماجد الاستمارات المخصصة لعقدى الزواج ، وسجل العقـــدان بشروطهما فى سجل المحكمة ، ثم دخلوا على القاضى يصحبهم كاتب معمم فقال للقاضى مبتسماً : « يريد السادة ان يتزوجوا » .

فنظر القاضى فى أوجههم مستغرباً وقال : « كلكم ؟ » .

فأجاب الدكتور : « كل اثنين منا يا صاحب الفضيلة عدا هذا السيد فقد أتينا به شاهداً ، وانت ترى ان هنا سيدتين فقط » .

فتبسم القاضى ومضى يقرأ صيغة العقدين ثم توقف ، ونظر اليهم متفحصاً وقال : « هذا الزواج هو الاول من نوعه ، وأرى أنكم ستسعدون فالشروط تدل على عقل وحكمة ، ثم طلب منهم التوقيع أزواجاً وشهودا ثم أعلن أنهم قد أصبحوا زوجين وزوجتين » .

فقال الدكتور : «لقد انتهى الامر ، ولم يستغرق من الوقت ما يتطلبه تقديم عريضة » .

فقال القاضى متباهياً : « الاسلام عصرى ابداً ، يسهل أمور الزواج ويقبل كل الشروط التى تقتضيها الحضارة المتطورة ، وها أنتم ترون انه قد ساعدكم على أن تتزوجوا زواجاً عصرياً » .

وخرجوا من المحكمة والدكتور يتمتم : « تالله انى لا اشعر بأنى قد أصبحت زوجاً رغم فلسفة هذا القاضى » .

فقال ماجد : « اظنك ستشعر بذلك فى المزوعة خلال الاسبوع القادم » .

- ٣١ -

نصبت الخيمتان وسط سهل أخضر قد ذوى بعض زرعه • وشاع بين الفلاحين بان اسيادهم قد تزوجوا حديثا ، فصار الزوجان يتلقيان التهانى من الفلاحين حيث يلتقيان بهم •

وزار الفلاح خلف ذو الزوجات والاولاد ماجدا في خيمته لتهنئته ، فقال وهو يبتسم عن لثته الدراء :« مبارك يابيك هذه هي الزوجة الاولى ، وارجو ان تثنى يوم يمتلىء كيسك بالمال » •

فقالت سنية ضاحكة : « اسمع يا خلف لو فعل لطلقته » •

فتطلع الفلاح فى وجه ماجد وتساءل : «اتعنى ماتقول حقا يابيك؟ »

فقال ماجد ضاحكا : « اجل » ولهذا فلست استطيع ان أثني واثلث مع الاسف » •

فمضى الفلاح يتمتم مستغربا : «كيف يصح هذا ؟ تالله ان عالم الافندية عالم غريب» •

وحل يوم زفاف سليم ، فأعلن العريس الدعوة للاحتفال بقطعة ملونة من الحرير عقدت على عصى فأخذت ترفرف كالعلم فوق كوخه ، ودعى سليم اسياده الى الحفل بنفسه فلبوا الدعوة جميعا •

وكانت سنية اكثر الجميع سرورا بذلك الاحتفال فقد أخذت

تتنقل بين النساء ، وانطلقت تسأل منهن وتستفهم عن اشياء كثيرة ، فعلمت ان المرأة تعمل مع بعلها او ابيها فى الحقل يدا بيد وانها تتقن أساليب الزراعة كما يتقنها .

وسألت احداهن عن شعورها عندما تزوج زوجها بأمراة أخرى فأجابت : « لقد فرحت اذ اصبح لى شريك يعينني على أعمال الحقل والدار ، وهي كثيرة ، مضنية . ان الضرة وما تنجبه من اولاد تزيد اليد العاملة فيزداد الرفاه » .

فقالت سنية لهيفاء شارحة : «هذا شأن مجتمع الزراعة الابتدائى ، ومن هنا تولدت عادة تعدد الزوجات واستخدام العبيد ، ولو تقدمت الزراعة واستعملت الآلات العصرية لارتقي الفلاح حتما ، ودخل دورا جديدا لاأثر فيه لتلكم العادات والتقاليد البالية .»

وكان زبالة اكثر الجميع سرورا بمشاركة اصحابه باحتفالهم الشعبى واهتمامهم باستطلاع احوال الفلاحين .

وانطلقت السنة الفلاحين ، فمضوا يتحدثون متباهين بما شاع عن الشركاء في تلك الناحية من اخبار انتصارات . ومضى زبالة يقص على فلاحيه مزهوا كيف أنتقموا من فخرى اغا ، وكالوا له الصاع صاعين .

وقال الشيخ حسين : « ارى أن الخواتين قد سرون بالحديث مع زوجاتنا الاميات » .

فأجابت سنية :«واى فرق بيننا وبينهن ، انهن يعملن معكم ونحن نعمل مع ازواجنا ايضا ، وكل ما هنالك اننا قد وجدنا فرصة للتعلم لم يجدنها هن فتولد بيننا هذا الاختلاف الذى تراه » .

وقرع الطبل ، ونهض الرجال والنساء للرقص (الجوبى) وتكونت الحلقة بسرعة عجيبة ،وشرع الرجال والنساء فى رقصتهم الايقاعية ، وكانت سنية تراقب ارجلهم بدقة فقالت لها هيفاء : « لااظنك ستشاركينهم فى (الجوبي) » .

فاجابت سنية : « ولماذا لا ؟ انى اريد ان اتقن حركتهم أولا :وهتف الدكتور : «تالله انك لامرأة عظيمة ، فأنى لااستطيع ان اضبط قدمي وأنا أسمع قرع الطبل ، وسنرى كيف يرقص الاستاذ ماجد» .

فقالت الدكتورة :« اما أنا فلا اظننى اشاركم » .

فقالت سنية :« ستخسرين ، انك لاتعلمين لذة الرقص المشترك . ان هؤلاء القوم رغم معيشتهم الشبيهة بالبدائية قد استكملوا كل شرائط الحياة بطريقتهم البدائية والرقص من أهم مقومات الحياة اما نحن أبناء المدن والمتعلمين بصورة خاصة ، فقد تركنا هذه الناحية بتاتا ؛ مترفعين عن القديم ، غير مقتبسين شيئا من الجديد للتعويض» .

وسرعان مانهضت سنية فنهض الباقون معها على الاثر . ولما علم الفلاحون بأن البيكات سيشاركونهم فى الرقص شاع السرور والحماس فى نفوسهم وهتفوا مرحين ، وسرعان ما اتقنت الارجل الجديدة ،تلك

الخطوات الايقاعية على صوت الطبل والمزمار وتطلعت سنية الى هيفاء فرأت وجهها قد اصطبغ بحمرة السرور والانتعاش .

وانتهت الرقصة . فقال ماجد لرفاقه :« لقد علمت ان أحد الفلاحين قد نظم ملحمة يصف بها المعارك بيننا وبين جيراننا ، وكيف انتصرنا عليهم ، بلغة عامية وبأسلوب فنى ساخر ، فهل يروقكم ان تسمعوها؟» .

فقفز الدكتور مسرورا وقال : « اسرعوا به بالله ، فلشدما اتوق الى سماع من يضحك منا من هؤلاء الفلاحين» .

وبدأ الفلاح يلقى مقطوعته غيبا منظومة نظما موزونا بلغته الخاصة ، وكانت المنظومة رائعة لايعوزها فن ، وصفقت سنية له عدة مرات وقالت معلقة :« هاتونى شاعرا من ابناء المدن ينظم نظما فنيا رائعا كما يفعل هذا . انتبهوا جيدا الى روعة الفن وبراعة النكتة وانسجام المعانى . من هنا تعلمون كيف خلد شعر العرب الجاهلى » .

ولما عاد الرفاق الى خيمتهم مساءا قالت سنية للدكتور :«أرجو ان تكون قد تأكدت بأنك قد تزوجت» .

فأجاب :« اجل ولكن على طريقة الفلاحين» .

- ٣٢ -

قال الدكتور لرفاقه ، بعد ان تنفس تنفسا عميقا ، وملأ صدره بهواء الصباح العليل :« ما اسوأ حظ هذا الزرع المسكين ، لولا رحمة الله لهلك كله . لقد انعشته تلك المزنة فأعادت لبعضه الحياة» .

فقالت دكتورته :« دع الزرع وشأنه وتغن بجمال الطبيعة ، وجودة المناخ ، ونقاء الهواء ».

فأجابها : « طبعا ايتها الدكتورة لكي تبرئي ساحة محاميك العظيم . ان كل ماتذكرين لايساوي عشر معشار ماخسرنا من مال» .

فقالت سنية : وما تفعل بالمال ؟ انك كنت قد ادخرته لتتزوج به فتولم الولائم ، وتبني منزلا لارضاء دكتورتك . اما وقد رضيت الدكتورة بزواج بدون احتفال ، وعرس بدون زفاف ، وبخيمة بدل القصر ، فلا حق لك في الشكوى ».

فأجاب حسام وهو يصطنع لهجة التهديد :« ايتها الاستاذة سأشي بك ، واطلق وراءك جواسيس التحقيقات الجنائية كما نطلق السلاقي وراء أرنب ، وأتهمك بأنك قد حولت ثلاثة من المواطنين الصالحين الى فوضويين شيوعيين هدامين يفضلون الخيمة على القصر ، و (الجوبي) على (الكونكا) ، ومعاشرة القرويين الحفاة الاميين على أشراف بغداد المتأنقين

وشبانها الظرفاء المفلسين!»

فانفجر ماجد ضاحكا وقال : «يالها من دلائل خير لك يادكتور أن تتذكر بأنك طبيب قبل كل شيء ، وان عليك واجبا انسانيا تجاه هؤلاء الفلاحين ؛ ألم تر عيونهم المتورمة وبطونهم المنتفخة؟» .

فقال حسام : « لم آت الى هنا لمعالجة الفلاحين بل لمعالجة دكتورتى فبعد أن كانت تكثر من تهديدى بأبرها السامة ، وجراثيمها التي تعد بالملايين صرت أنا .. »

ولم يستطع ان ينهى كلامه فقد رفعت هيفاء كتلة كبيرة من الطين الهش واهوت بها على رأسه وهى تزمجر :« اذا كان الزواج قد أطلق لسانك ، وعلمك قلة الحياء ، فخير لك أن تبقى اعزب واذا عدت الى مثلها فسأهشم رأسك بصخرة بدل الطين» .

وأمسك ماجد وسنية بطنيهما من شدة الضحك ، ومضى الدكتور ينظف شعره من الطين وهو يقول :« اشهد عليها ايها الاستاذ . لقد اعتدت على وهددتنى بالقتل ».

ولمح الرفاق زبالة مقبلا من بعيد ، وبيده عصاه الطويلة ، وهو حافى القدمين ، ولما اقترب منهما قال ضاحكا : « انكم تقتتلون » .

فقال ماجد : «بل نمزح يا أبا حسن» .

فقال زبالة « لقد تعلمتم كل شيء على طريقتنا ، حتى ما يتعلق بالمداعبة والمزاح» .

فقال حسام : «أرايت يا أبا حسن كيف كسرت عروسى رأسى

بصخرة ، فما انت فاعل لو ضربتك امرأتك؟» .

فأجاب زبالة :« لقد كسرت أم حسن يد المسحاة مرة على رأسي ، وضربتها مرة أخرى ضربة كادت تفقدها الحياة ، فنحن متساويان كما تريدون أن نكون » .

فقال حسام وهو يبحث بعينيه عن طينة هشة :« اذن فسأتساوى مع الدكتورة» .

فقال زبالة ضاحكا :«اعف عنها هذه المرة كرامة لخاطرى»

فقال زبالة : اذن صحيح ما يتناقله الفلاحون هنا بأن زوجات الافندية هن اللواتى يطلقن أزواجهن ، وان الأفندي لا يستطيع أن يتزوج بأكثر من امرأة واحدة؟» .

فقال ماجد :«كل هذا صحيح ، وأرجو ان لاتبالغوا كما هى عادتكم ، فتدعون ان زوجات الافندية يستطعن ان يعددن الازواج بدلا من أن يعدد الرجال الزوجات» .

فأجاب زبالة : « اطمئن فهم يعلمون ان ذلك حرام في الاسلام» .

ثم التفت الى الزرع وبعد ان أجال نظره فيه قال لماجد :« لقد نجا قسم كبير من زرعنا ، ومادمنا بحاجة الى الدراهم ففي استطاعتنا أن نبيع منتوج الشعير سلفا لتاجر من تجار الحبوب. ونأخذ منه أغلب الثمن مقدما فنستعين به على زرع الموسم الصيفي» .

فقال ماجد : « انا لاأعرف شيئا عن اصولكم المتبعة فى أمثال هذا البيع وهذا الشراء ، فدبر الامر أنت وخبرني بعد أن تنتهي من

مساوماتك لاعقد الصفقة» .

فقال زبالة :« لقد دبرتها ، وما عليك الا ان تذهب الى عبدالجبار تاجر الشعير المشهور لتوقع على ورقة البيع وتستلم الدراهم » .

فقال الدكتور :« وكم قدرت محصول هذا الزرع؟»

فأجاب زبالة انى أقدره بثلاثمائة طن ، وقد بعنا مائة وخمسين طنا احتياطيا للطوارىء ، اذ قد يكون تقديرنا فى غير محله ، أو أن الناتج ضعيف وبهذا نؤمن تسديد الكمية التي بعناها حتما» .

حل موسم الحصاد ، وكان قد حل قبله موسم الجراد ، فاكتسح مزارع المناطق الشمالية اكتساحا ،وانهالت الاستغاثات على العاصمة من كل حدب وصوب ، وبدأت مديرية الزراعة بالمكافحة بعد فوات الوقت كالعادة ، وتكلمت الجرائد كثيرا ، وتكلم النواب في مجلسهم كثيرا وصرح نائب من مزارعي الشمال وهو مغضب ، قائلا : « ان الجراد الحقيقي هم موظفو مكافحة الجراد ، بل هم اعظم خطرا من الجراد لانهم لا يبدأون بالعمل الا بعد فوات الفرصة ، فضلا عن انهم بسرقتهم مواد المكافحة يعينون الجراد على التكاثر ، وما دامت معيشتهم على الجراد فلتبشر الامة بتكاثره ، وتهيأ ماجد ورفاقه لمكافحته فيما لو غزاهم وأخذوا يترقبون اغارته ، ويعدون له العدة واقترح الدكتور أن يكافح بدخان النفط لانه سيغزوهم طائرا لازاحفا ، اذ لامجال للزاحف أن يصل اليهم ، يعترض طريقه نهرا دجلة وديالى ، وهو لو أنه طائرا فسوف لايؤذي الغلة الشتوية التي هي في دور الحصاد ، بل سيأكل المحاصيل الصيفية أي الخضروات ، وكانوا قد زرعوا منها كميات كبيرة لتعويض خسارتهم .

وأبان زبالة بدلائله الريفية البسيطة ، بان الجراد سوف لايغزوهم وأضاف :« لولا أن الجراد الحكومي ، اى مدير الناحية ، لم يقتل تلك الكمية الكبيرة من منتوج الحنطة ، لكان محصولهم رائعا ، ولكان

ربحهم جزيلا ، فضلا عن أن الجراد سيرفع قيمة اسعار الحبوب ، ويوصلها الى درجة عظيمة .

واظهر ندما على بيع الشعير مقدما ، وقال : « لو استدنا مانحن بحاجة اليه بربا خمسة بالمائة فى الشهر ، ولم نبع شعيرنا بهذا السعر الزهيد لخرجنا من هذه الصفقة رابحين» .

وتم الحصاد . وانهمك الفلاحون نساءا ورجالا واطفالا بالنقل والدوس والتصفية ، وتراكمت اكوام الشعير والحنطة معدة للقسمة ، وطلب الشركاء ماجدا ليشرف بنفسه على هذه القسمة وارسل تاجر الشعير وكلاءه وعماله لاستلام ما اشتراه .

وبدأ الكيل ،واذا بالحنطة قليلة لاتكفى الفلاح قوت أربعة اشهر ووقف ماجد امام اولئك الفلاحين الذين عملوا طيلة السنة حائرا ، وعلم أنه لو استوفى مابذمتهم من الدين او أخذ حصته من هذا المحصول لاماتهم جوعا ورأى زبالة حيرته ، فهمس فى أذنه : « ان هذه الساعة هي الفاصلة ، فضح بالفلاح وانقذ المزرعة » .

فقال ماجد : « ان الفلاح هو روح المزرعة ، ولو فعلت ماتشير به لضحيت بضميرى وبالمزرعة معا» .

فتجهم وجه زبالة وقال :«انى اتنصل من مسؤولية ماتريد ان تصنع» .

واعلن ماجد للفلاحين قراره الاخير فيما يتعلق بمحصول الحنطة فقال انه يعفيهم من كل مافي اعناقهم له ، ويتخلى عن حصته من ذلك

المحصول ليقتاتوا به ، فالتمعت عيون الفلاحين بشرا وهتفوا له عاليا ، وأعلنوا بأنهم مدينون له حتى الموت . وقال زبالة :« لابأس فيما فعلت ولو انك ستعلم اخيرا مقدار ماوقعت فيه من خطأ . ولكن لى عندك رجاء آخر لعله ينقذ الموقف وهو أن تبيع الشعير بسعره الحالى وترد دراهم التاجر اليه ، فقد بعناه قبل ثلاثة أشهر بسعر اثنى عشر دينارا للطن الواحد وقد بلغ سعر الطن الآن ثلاثين دينارا والفرق وحده يكفى لتسديد اغلب ديوننا ، وليس للتاجر حق قانونى علينا ؛ ونستطيع ان نعتذر له بأننا لم نحصد شعيرا هذه السنة أذ انه قد تلف عند قطع الماء عنه» .

فأجاب ماجد محتدا :«انك تريد ان نكذب ونخدع ونغش فى سبيل السرقة . انى لااستطيع ان انحط الى هذه الدركة أيها السيد زبالة ، وليس معنى الاشتغال بالزراعة ان يتخلى الانسان عن كل الصفات الخلقية الحسنة فى سبيل الدرهم والدينار» .

فقال زبالة :« انك لازلت فجا ايها السيد ، وليست هذه هى المرة الاولى التى أبديت فيها قلة خبرة في الحياة العملية ، ولكنها ستكون الاخيرة المفجعة . وسترى ان هؤلاء الذين تريد ان تعاملهم بمنتهى الشرف واقفون لك بالمرصاد ليعاملوك بنتهى النذالة ، وسترى انهم لا يرحمونك اذا وجدوا منك تقصيرا ، حتى ولو لم يكن لك ذنب فيه» .

فأجابه ماجد : « لايهمنى ان يكونوا انذالا مادمت مؤمنا بأنى رجل شريف » .

- ٣٤ -

اختنق النهار ، وضاقت انفاس الناس ، وبدت الشمس مصفرة شاحبة وراء طبقات الغبار الكثيفة حتى تحجبت بها اخيرا ، وبدأت الريح تعوى تارة ، وتئن اخرى ، مالئة العيون والانوف والافواه بذرات الغبار الدقيقة ؛ نافذة الى ادق المسالك ،ولم ينج منها لاغني فى قصره المنيع ولافقير فى كوخه الوضيع .

كان ذلك اليوم من اواخر حزيران ، وكانت تلك الزوبعة الترابية لاتشبه سابقاتها ، فقد أطبقت على صدور الناس كالكابوس الخانق ، واستمرت ، والحت في الاستمرار حتى دامت عدة أيام والتجأ ماجد الى عيادة الدكتور حسام فى عصر يوم من ايام اشتدادها .

وقال لصديقه وهو يلهث :« قل لى بربك الم يخترع الطب او العلم الحديث ماينجى الانسان من شر هذه الزوابع الترابية المهلكة؟»

فقال الدكتور « ان التاريخ ، وانت اعلم مني به ، ينبيك بانها لم تكن موجودة فى عصر أجدادنا اى يوم كانت هذه الصحارى التى تملأ انحاء العراق الآن وتمتد حتى جوانبه البعيدة ، خضراء يانعة بالزروع والبساتين ، ولنا أن تستنتج من ذلك ان الجو نفسه كان اكثر لطافة واليق للحياة الصحية » .

وقال ماجد :« اتعلم ان هذا الهواء اللافح بما يحمل من ذرات تراب كاوية يهلك بساتين المخضرات ومزارعها كما يهلك الانسان؟» .

فأجاب الدكتور « وكيف لا اعلم . انه يحرق الأوراق بعد ان يسحب الرطوبة منها ويحولها هشيما . وهو ان كان قادرا على الفتك بالانسان وهو الاقوى ، فما تراه يصنع بالنبات وهو الاضعف ؟ وبهذه المناسبة علينا ان نتهيأ لاستقبال نكبة جديدة تحل بمزرعتنا السيئة الحظ المنكوبة مرارا » .

فقال ماجد : « انى أتوقع قدوم سليم ، وقد طلبت منه أن يأتي الى هنا رأساً ليخبرنى بمقدار محصول الشعير الذى سدد للتاجر ، وسنسأله عن حال المخضرات » .

واتى سليم بعد نصف ساعة ، واستقبله الصديقان ، وسأله الدكتور بعد جلوسه مباشرة : « كيف حال الزرع ؟ » .

فأجاب سليم متجهماً : « ان منظره ومنظر الفلاحين يفتت الأكباد ، فقد هلك الزرع بأجمعه . ان النكبة هذه المرة من الله لا من البشر » .

فقال ماجد : « اجل ، ما اسهل ان نضع كل شيء فى عنق الله » .

والتفت سليم الى ماجد متسائلا : « كم بلغت واردات هذه المخضرات حتى الآن ؟ » .

فأجاب ماجد « ألف وخمسمائة دينار بمدة عشرة أيام فقط هذا ما عرفته من قوائم البياع التى تصل الي يومياً » .

فقال سليم : « لو لم تهلك مزروعاتنا بهذه الزوبعة لاستمرت مدة شهرين اذ هذا هو عمر البطيخ الطبيعي ، ومن ذلك تعلم مقدار خسارتنا الفادحة » .

والتفت ماجد الى سليم وسأله : « وما حال حاصل الشعير ؟ » .

فأجاب : « كل ما بقي عندنا بعد ان استلم الفلاح حصته هو خمسون طناً ، سلمت لوكيل التاجر ، وليس لدينا غيرها ، ومعنى هذا أننا مدينون له بمقدار مائة طن . وقد ارتفع ثمن الشعير في الآونة الاخيرة ارتفاعاً ما كان يحلم به أحد » .

فقال الدكتور : « لقد سمحت الحكومة بتصديره هذه السنة فقل في العراق وزاد الطلب عليه ، وأرى أن الجراد والحكومة معاً ستعرضان هذا القطر الى مجاعة رهيبة » .

فاجاب ماجد : « الحكومة أولا وآخراً أيها الدكتور ، فلولاها لما غزانا الجراد ايضاً » .

والتفت ماجد الى سليم وقال : « وكيف قدرتم الكمية أولا بحيث تورطنا في بيع هذا المقدار الكبير مقدماً من الشعير ؟ » .

فاجاب سليم : « لقد كانت المزرعة توحي حقاً للناظر بعظم كمية الحاصل ، ولم ندر ان انقطاع الماء في تلك الفترة قد احدث مثل هذا الاثر السيء في الزرع » .

وسأل الدكتور ماجداً : « ولكن ماذا سيفعل هذا التاجر لتسوية حسابه ؟ » .

فأجاب ماجد : « وسأتفاوض معه على تسوية الامر بالحسنى ولعله يقبل منا ربحاً معقولا » .

فقال سليم : « ستلقى منه عنتاً ، وسترى أن رأي زباله فيه وفي امثاله صحيح » .

- ٣٥ -

قصد ماجد تاجر الشعير عبدالجبار المالك فى محل عمله ، فتلقاه الأخير ببشاشة ، وكان المحل غاصاً بالمزارعين وبتجار الشعير وغيره من الحبوب وبعدد كبير من الدلالين المثرثرين ، وكان الحديث يدور على تقصير الفلاحين في دفع ما باعوه سلفاً ، وامتناع بعضهم عن الدفع بصورة باتة .

وكان ماجد يتطلع فى وجه عبدالجبار العابس ويمعن النظر فى ملامحه الدقيقة ، ويديه المعروقتين اللتين ذكرتاه بيدى ملاك الموت فى بعض الصور ، حاملا منجل حصاده . كانت مقابلة ماجد لذلك التاجر هى الأولى ، فقد تمت صفقة البيع قبلا بواسطة أحد وكلاء التاجر الجالسين وراء مناضدهم ، وأمامهم أكوام الدفاتر والأوراق .

وبدأ التاجر العظيم يتظلم لماجد ، ويشكو امتناع اغلب الفلاحين والملاك عن تسديد ما باعوه مقدماً ، واصرار بعضهم على ارجاع الثمن أو صفقة البيع . فقال : « من كان يظن أن اسعار الشعير سترتفع هذا الارتفاع الغريب ؟ لقد اشتريت من الفلاحين سلفاً بسعر الطن ١٢ ديناراً ، وهو السعر الرائج حينذاك ، وليت السعر بقى على حاله فانت تعلم بأنى تاجر اشترى من الفلاح وابيع الى الخارج ، وقد بعت اغلب الكميات التى اشتريتها سلفا ، وها انذا عاجز عن الدفع ، فان الفلاح لما رأى اسعار الشعير تتضاعف مرتين ، امتنع عن التسليم وباع شعيره بدلا من أن

يسلمه لى . وتأكد يا ماجد بيك بأنك من القـــلائل الذين دفعوا ما بذمتهم » .

وهنا التفت الوكيل الذى عقد صفقة البيع فقال : « لقد استلمنا من ماجد بيك خمسين طنا فقط ولا زال عليه ان يدفع مائة طن » .

فقال ماجد :« لهذا أتيت . وأرجو ان تعلم مقدما ان الكمية التى دفعت لك هى كل ما نتج من مزرعتنا ، بل وأننا اشترينا قسماً من حصة الفلاحين وأضفناها اليها ، ولم نبق حتى ما يلزمنا للبذار في الســـنة القادمة » .

وتبدلت ملامح التاجر بسرعة غريبة فأكفهر وجهه النحيل الذى يشبه وجه جرذ ، وزاد انحناء ظهره ، ونظر الى ماجد من وراء نظارتيه وقال : « أرجو المعذرة اذا ما ألححنا فى الطلب ، وقد أخبرتك بأننا قد بعنا ما اشتريناه الى تجار آخرين » .

فقال ماجد : « ان صيغة البيع تجبرنى على أن اعطيك ما عندى ، ولا أبيع لغيرك ، وأنت موقن بأننا لم نبع شيئاً من هذا الشعير لسواك » .

فأجاب التاجر :« انى مجبر على معاملتك معاملة قانونية ياماجـــد بيك ، والاتفاق الذى بيننا يخولنى حق شراء الشعير من السوق اذا عجزتم عن الدفع ، وتحميلكم فرق السعر » .

فأجاب ماجد : « هذا فى حالة المخالفة ، ولكننا لم نخالف ، كما ان القانون الزراعى يعفى المزارع الذى يبيع سلفا من التغريم ولا يلزمه الا بارجاع الثمن اذا اصابت زرعه آفة ، ولا يكون للمشترى الحق فى

غير استرجاع المبلغ المدفوع سلفاً ، ونحن قد سلمناك شعيراً قيمته تساوى السلفة التى أخذناها منك فالانصاف يقضى باكتفائك بما أخذت وقد ربحت بهذا الشعير أضعافاً » .

فقال التاجر : « اذا أردت القانون فتذكر أننا استلمنا الشعير دون أن ندفع لكم ايصالات بما استلمنا ، فاذا أصررت من ناحيتك على عدم دفع الباقي أو عدم دفع الفرق ففى استطاعتى مطالبتكم بكل المبلغ المدفوع باعتبار أنكم لم تسلموا شيئاً » .

وانتفض ماجد مرتاعا وقال :« تالله ماكنت أعلم انكم محتالون سارقون ، وانى آسف لانى لم اعاملك كما يعاملك بقية الملاك اذ لست من طينة امثالك . أما وقد ابرزت مخالبك فاعلم بان حيلك ستعود بالوبال عليك» . وخرج لايلوى . فتمتم التاجر وراءه وهو ضاحك: « سنرى على من يعود الوبال ايها السيد المغفل» .

- ٣٦ -

اجتمع الشركاء فى مكتب الاستاذ ماجد رحيم عصر يوم من ايام ايلول • وكانوا فى حالة توتر وارهاق ، وعلى وجوههم غبرة ترهقها قسرة •

وافتتح ماجد الحديث فقال: «تشير نتيجة الحسابات الى أننا قد أخفقنا أخفاقا مريعا فى مشروعنا هذا ،واننا قد أضعنا كل ماصرفناه عليه ونحن زيادة على ذلك مدينون بأربعة الآف دينار للبياع وبمبلغ لانعلم مقداره بالضبط لتاجر الشعير ، اذ ان ذلك يتوقف على نتيجة الدعوى التي رفعها علينا • وقد هرب اغلب فلاحينا بالسلف التى في ذممهم، مغتنمين فرصة خلافنا مع مدير الناحية ، وقد شجعهم المدير سرا على ذلك ليكسبهم في صفة فيما لو نكثنا بعهدنا ولم تسقط الدعوى التى اقمناها عليه ، وعلاوة على ذلك فان لجنة تقدير منتوج الحنطة قد فرضت علينا عشرة أطنان للتموين العام لانملك منها حبة واحدة ،واذا ما أشترينا من السوق فأننا سنخسر بها مبلغا طائلا • وعمال المكائن يطالبون بالمتراكم من اجورهم • والمكائن بحاجة الى وقود ، فمن هذا أرى اننا مهددون بكارثة» •

فقال زبالة : «دعنى القي اللوم عليك ياأستاذ فأنت الذى أصررت على معاملة تاجر الشعير بشرف ، وها قد رأيت النتيجة بنفسك ، وانت الذى أعفيت الفلاحين من أثمان بذور الحنطة ، وها هم قد أنقلبوا علينا واعتبروا هذا العطف منا ضعفا ، وأنت الذى اصررت على احتقار مدير

الناحية أول الأمر واهماله حتى أصبح من أعدائنا ، ثم الجأته بمماطلتك في اسقاط الدعوى الى أن يركب هذا المركب الوعر ، ويشجع الفلاحين على الهرب» .

وقال الشيخ حسين :« الحقيقة ايها الافندية انكم اناس غير عمليين فيما يتعلق بالزراعة ، ويصعب عليكم الاستمرار معنا على العمل وانتم محتفظون باسلوبكم الخاص في التفكير والعمل » . وهنا انبرى سليم وقال لزبالة مكفهرا : «انك نسيت يا أبا حسن ، وانت يا أبا حسين حين كلتما اللوم للاستاذ ماجد بأنه لولاه لما سميت الآن ملاكا في النهروان ، ولكنها طريقتكم ايها الاعراب القليلو العقل فأنتم تتبعون القوى دائما ، وتخضعون لسوطه . فأنت مسؤول يازبالة عن الاكاذيب التي افتضحت اخيرا ، فقد اشعت بأن السادة شركاءنا بيكوات متنفذون ، فلما وقفت الحكومة أمامهم موقف المستضعف ، اكتشف الفلاحون كذب ادعائك والفلاح لايخاف غير القوة والنفوذ ولايمكن السيطرة عليه بغير الشرطي والسجن ، فالذنب ذنب الفلاح المنحط الذي يخاف المسيء ويحتقر المحسن ولاعيب على ماجد بيك ان يكون رقيق الشعور كثير العطف » .

وقال الدكتور بلهجة صارمة :« اعلم يازبالة بأن اسلوبك الذي كنت تصر عليه هو أسلوب غير ناجح عمليا ، فالرشوة لاحدود لها ، وقد اتت النكبة من جيرانكم المتنفذين الاقوياء لامن اصرارنا على عدم دفع الرشوة وأنت تعلم ان الحملة هي ضدكم بالدرجة الاولى لاضدنا ، واني أرى من لهجتك وأسلوبك الجديدين ، انك قد تغيرت علينا فهل

ستنقلب مع غيرك فتكون فى صف اعدائنا ؟ لم يبق الا هذا حتى نعض بنان الندم على ما قدمنا لكم » .

فقال سليم «انى لاستبعد عدم الوفاء من زبالة ورفاقه فهم يميلون مع القوى ، ولااستبعد مطلقا ان يخدعه جيرانه فيقنعوه بالتخلى عنكم والوقوف بصفهم ، ولكنى انصحه بالتريث فأنه لم ينتصر حتى الآن ، ولم يصبح له حق في الارض التى اشغلها ، ولازالت الحكومة تعتبره متجاوزا على هذه الارض ، وسوف تمنعه بتاتا من زرعها في السنة الآتية » .

وحاول زبالة عبثا أن ينفى تلك التهم بحجج واهية ، وحاول ان يثبت اخلاصه لرفاقه ، ولكنه كان بعد أن وعى كلمات سليم كالثعلب يحاول ان يتخلص من مصيدة أطبقت على ساقه .

جلس الاصدقاء الاربعة حول مائدة العشاء الانيقة ، في دار الاستاذة سنية ، التى اصبحت دارها ودار ماجد معا ، وافتتحت سنية الحديث فقالت : «ان هذا هو العشاء الربانى الاخير بالنسبة الى مسيحنا ماجد ، الذى أتته الضربة الاخيرة من الفلاحين بعد ان بذل جهده لمساعدتهم» .

فأال الدكتور حسام : « تالله ماكنت أعتقد ان هؤلاء الفلاحين قليلو الوفاء غدارون الى هذا الحد» .

فأجاب ماجد : «اعتقد ان لا حق لنا فى نعتهم بالغدر والخيانة ، وعلينا ان نكون واقعيين لنرى الامور كما هى دون ان نسبغ عليها من خيالنا ومثلنا الوانا باهتة لاتغطى جوهرها . ان الفلاح يخدم من يكفل له العمل والعيش ، فحين وجدوا اننا قدمنا لهم ارضا طيبة وماءا وفيرا وجالدنا وانتصرنا ، اعتقدوا بأننا أقوياء ولما شعروا بأننا سنغلب ، أو غلبنا فعلا ، حولوا وجودهم الى جهة أخرى تكفل لهم ماذكرت . وكم مرة سمعت عبارات الاسف تتدفق من أفواههم عند رؤيتى وحتى اولئك الذين هربوا بسلفنا ، لايبخلون علينا بالمديح يكيلونه لنا جزافا أينما حلوا ويفضلوننا على كل ملاك منطقتهم » .

فقالت هيفاء مبتسمة :« الاترون معى أن عنصرا جديدا قد دخل في آراء ماجد ومنطقه ؟ بل وفى طبيعته عند الاصطدام بالمشاكل ، فقد زاد هدوءا ، واتزانا ولعل لسنية أثرا فى ذلك» . فأجابها زوجها ضاحكا :

«كانت المصيبة واحدة فأصبحت مصيبتين ، فبعد ان كنا مبتلين بماجد وحده ، يبعثر مانملك ذات اليمين وذات الشمال ، اتت الاستاذة سنية لتقنعنا بفشلنا بالبرهان ، ثم تطلب منا بكل هدوء أن نستمر فى العمل الفاشل ونتخلى عن كل مانملك ونكون بالنتيجة مسرورين ، مكتفين بالفوائد المعنوية والارباح الاخلاقية • وليت الامر وقف عند هذا الحد فأن الدائنين أذا ماصفوا املاكنا فى هذا المشروع فسنخرج مدينين لهم ومعنى هذا ان نبقى تحت سيطرتهم عبيدا نعمل لفك أسارهم • ومن المضحك ان ينظر لنا الناس نظرة تختلف عن الواقع ، ومن حقهم الا يصدقوا اننا نشتغل بالزراعة ونخسر فى مثل هذا الوقت الذى يعتبر فردوس الملاك والمحتكر وتاجر الحبوب ، وهم الذين تتراقص قلوبهم طربا كلما قفزت الاسعار قفزاتها الجنونية» •

فقال ماجد :« لقد ساومني زبالة على بيع حصصنا فى هذا المشروع الى احد اعدائنا المجاورين الى فخرى آغا ودفع لى مبلغا يقارب ماصرفناه ولكنى اصررت على أن نخرج غير مدينين لاحد بشيء فضلا من أستعادة رأس المال ، والمساومة لازالت جارية • ولكن هؤلاء الملاك الملاعين ينزلون بالقيمة الى الحضيض كلما شعروا بحراجة مركزنا ، واذا ماأستطعنا ان نخدعهم بامكانية الاستمرار فى العمل فلاشك انهم يدفعون لنا ربحا وافرا»•

فقالت سنية :« يعجبنى وكيلكم سليم فهو مستميت فى سبيل انقاذ مشروعكم للعمل معكم ،وقد سمعت انه تشاجر مع قريبيه زبالة والشيخ حسين حتى وصل به الأمر الى تهديدهما بالسلاح» •

وقال الدكتور حسام وهو يتناول قطعة من الخبز : «انظروا كيف اغبر الخبز وأسمر . ان اسعار الحنطة قد تضاعفت مرتين ، وسعر الشعير يطفر طفرات عجيبة بعد أن صدر اغلبه . والشائع أن تجاره قد دفعوا رشوة ضخمة لمن أجاز هذا التصدير » . فقالت سنية : « نحن سعداء لو بقى الخبز اسمر كما نراه فأنى اخشى أن يتحول اصود أو يختفى من السوق بتاتا ، ولاتستغرب أذا ماتضاعفت اسعار الحنطة والشعير خمس مرات أو أكثر فالفلاح قد أطمعه غلاء سعره ، فباع ماعنده منه ولم يبق حتى مايقتات به ، وانى لانتظر نكبة مروعة عندما تخلو البلاد من هذين العنصرين الغذائيين» .

- ٣٨ -

استيقظ ماجد صباح ذات يوم على صوت خادمتهم الصغيرة ،وهى تصخب وتشكو بصوتها الحاد :« وكيف أستطيع ان اصل الى شباك الفرن ياسيدتى وألوف الناس تقتتل للحصول على رغيف ؟» • فتجيبها سنية : «ولكن اليس هنالك محل آخر لبيع الخبز ؟» •

فتقول الخادمة : « اذا كنت تريدين خبزا خاصا ، فهو موجود عند محيلة الخبازة ، ولكنها تبيع الرغيف الصغير منه بأربعة عشر فلسا وهو سعر عال » • فترد عليها سنية :« لابأس يافتاة • اشتريه بأى سعر كان فان سيدك لابد أن يفطر قبل الخروج الى عمله» •

ترك ماجد فراشه وتنكب منشفته ووضع فرشة اسنانه فى فمه وتقدم من زوجته مرحا فأحاط خصرها الرشيق باحدى ذراعيه واشغل الاخرى بتحريك فرشة الاسنان فى فمه ورطن بقدر ماسمحت له فرشة أسنانه :« لاأستطيع تقبيلك أيتها الاستاذة على شدة أهتمامك ببطنى الخاوى ، ولكن ارجو الا تتحقق نبؤتك اكثر من هذا فنهلك جوعا» • فأجابته :« لقد هلك عدد من سكان المناطق الشمالية فعلا وقد استلمت رسالة من أربيل ، من ابنة خالتي سعاد وهي زوجة مدير ناحية هناك كما تعلم ، تقترح على ان تشترى لى فتاة او فتى بمبلغ لايتجاوز العشرة دنانير »•

فبق ماجد مابفمه وقال :« ياالله ! ابلغ الامر هذا الحد من الخطورة؟

اني أستغرب ألا يخرج هؤلاء عن طورهم ويأتوا أمرا إدّا ما داموا قد وصلوا الى درجة الهلاك ؟» .

فأجابته سنية :« لعلهم يعتقدون بأن مانزل بهم قدر محتوم ، أو بلاء قد صبه الله على رؤوسهم بسبب معاص توهموا انهم قد ارتكبوها . انهم يعللون الامور تعليلا يشفى قلب الملاك الكبار ومحتكرى الحبوب وتجارها . وبهذه المناسبة انى انصحك الا تعلن عن توقعاتك بمثل الاسلوب فالجواسيس قد ملأوا الشوارع والمقاهى ، وحتى محلات الاعمال .وأخشى ان يدخلك جاسوس نصف أمى فى قائمة الشيوعيين والمحرضين على الهدم والتخريب» .

فقال ماجد ضاحكا :« بودى لو أرى واحدا من زعماء هؤلاء الشيوعيين . اذ يلوح لى أن منطقهم يختلف كثيرا عن منطق هؤلاء الفوضويين الذين يملأون كراسى الحكم ويحتلون الوظائف احتلال مستغل جائر» .

فقالت سنية مقهقهة : « ان الشيوعيين هم الذين يلقبون عادة بالفوضويين » . وسمع في الخارج هرج عظيم فاسرع ماجد وعاد بعد مدة ومعه الخادم الصغير وهو يقول : « لقد اغمى على امرأة مسكينة من شدة الازدحام على شباك الفرن فكادت تموت ، ويقول صاحب الفرن بأن ما عنده من الخبز لا يكفى نصف الموجودين » .

ثم تناول رغيفاً من الخبز الذى أتت به الخادم ، فلفه وأدخله فى فمه مرة واحدة وقال : « لقمة واحدة من الخبز باربعة عشر فلساً ، لقد

أصبح الخبز أعز من كل المواد الغذائية ، وليت الانسان يستطيع أن يستغنى عنه باللحم أو بغيره . اذ لو كان الامر كذلك لامكن ان تصبح وجبة الغذاء اقل كلفة » .

فقالت الخادم الصغيرة ضاحكة : « ان اللقمة تكلف سيدى عشرين فلساً اذا حسبنا الأدام ، ومعنى هذا أن عشرين لقمة وهي وجبة غذائه تكلف أربعمائة فلس » .

فعرك ماجد أذنها وقال : « أيتها الخبيثة ، هل تعلمت الحساب لتطبيقه برأسي ؟ انك اذا حسبت ما أكلف فى هذه الدار فربما كان دخلي كله لا يسد نفقات أكلي ، فتطردني سيدتك من دارها لأنى اغير على دخلها ، وفى هذه الحالة لا يبقى لى مناص من أكلك أنت » .

فقالت أمه وهى تنادى الخادمة من المطبخ لتحمل أطباق البيض المقلي : « لو اعترضت سنية على كثرة أكلك فسأطلب منها معاش خادمة وبهذا يحصل التعادل » .

فقهقهت سنية وقالت : « رحماك يا أماه ، فأنا لا أعرف حتى كيف أقلى بيضة ، ولو طلبت كل راتبي لدفعته لك راضية » .

- ٣٩ -

امتلأ الشارع العام بجمهور المتظاهرين فسد الطريق على السابلة وقطع حركة المرور ، وتعالت الهتافات وكلها تطالب بانقاذ فلسطين من محنتها العظيمة ، وتشجب مشروع التقسيم ، واضطر الدكتور حسام الى الوقوف مع هيفاء منتظرين مرور المظاهرة التى ملأت ساحة باب المعظم ، وكونت مايشبه العقد الهائلة تسد منافذ الطرق الاربعة .

قال حسام : « ماذا باستطاعة هؤلاء المساكين ان يفعلوا لانقاذ فلسطين ؟ » .

فقالت هيفاء : « ان الحكومة قد وعدتهم ببذل كل جهد للحيلولة دون تنفيذ هذا التقسيم الجائر واحباط مشاريع الصهيونية فيها » .

فقال حسام ساخراً : « الحكومة . أجل الحكومة . أو ليست هى الحكومة التى تغفل عن بعض أولئك الذين قد اصبحوا أداة حقيرة لكل من انتفخ بالمال ، فتقتل الزرع وتقفر الاراضى لقاءرشوة لاتتجاوز بضعة دريهمات . واذا كان هذا حال موظفيها عندما تقدم لهم بضعة دراهم فكيف تكون الأحوال لو لوّح الصهيونيون بالآلاف والملايين ، ولو لوح الأنكليز لبعض الأذناب بالمصالح الضخمة والفائدة الفاحشة ؟ » .

فقالت الدكتورة هيفاء : « لو لم يكن لماجد الا فضل اقحامنا فى السياسة بواسطة وضعنا أمام مشاكلنا الاجتماعية وجهاً لوجه لكفي به فضلاً . لقد أدركت الآن لماذا تلح الحكومة على موظفيها بعدم التدخل

فى السياسة ، وتضع أمام أعين التلاميذ حجاباً صفيقاً . ان ذلك يذكرني بحمار الطاحون الذى تربط عيناه وهو يدور سعيداً مغتبطاً غير مهتم بشىء أو متوقف لدى شىء » .

وقاطعها صوت من الخلف : « والمهم أن هذا الحمار هو من حملة الشهادات العليا أى ممن يحسبون فى الطبقة العليا ثقافة » . فالتفت الزوجان فوجدا ماجدا يبتسم لهما ساخرا ويقول :« ان رئيس الوزارة يعد ببذل النفس والنفيس لانقاذ فلسطين ، ويذكرنى هذا الوعد بتصريح قد صرح به رئيس وزارة سابق ، لاعمار اراضى العراق الواسعة وفحواه توزيع الأراضى الزراعية على المثقفين وتكوين مزارع تعاونية . أى انه يعطينا نحن الأربعة لو أردنا ، قطعة أرض يسقيها الماء سيحاً دون جهد أو ثمن . ولو لم نكن نحن أبطال النهروان لقلنا ياله من رئيس جليل طيب القلب راغب فى خير الأمة وأعتقد جازماً بأن فلسطين ستنقذ أيضاً بنفس هذا الأسلوب » . ورأى الثلاثة فتاة تحمل على الأكتاف واشرأبت اعناق المتجمهرين متطلعة اليها ، وساد صمت عميق عكره ماجد بقوله :« يالهى انها سنية ستخطب القوم» . والتهب وجهه بالدماء حماسا ولمعت عينا رفيقة وبدات الفتاة تخطب بصوت متزن رخيم ما لبث أن أخذ يعلو ويعلو كسمفونية بدأت هادئة رصينة ثم تصاخبت أنغامها كعاصفة هوجاء ، ولم يسمع الرفاق أول مقطوعة من خطابها ، وحاولوا عبثاً أن يدفعوا المتجمهرين ويشقوا لهم طريقاً ، ولكن صوت الخطيبة مالبث أن تعالى وهو يرن رنين الابواق او يصلصل صلصلة السيوف المتشابكة . والتقطت اذانهم كلماتها اخيرا واضحة جلية :

« أجل ، كلنا نعلم أن وطننا الصغير في محنة ووطننا الكبير في خطر وأن الدول العظمى لا يهمها من أمرنا الا بقدر ما تستفيد منا ، فهي تمديدها لتأخذ لا لتعطي ، فان ضربت على يدها أعطت عندما تريد أن تأخذ ، ولكن من هو الذى سيضرب على هذه اليد يا ترى ؟ فى أغلب البلاد العربية بل وفى أغلب بلاد العالم اليوم حكومات وشعوب. أما الحكومات فقد تحكمت رغم أنف الشعوب فانصرف همها الى خنق صوت الشعوب لكى تطمئن الى خموده نهائياً وعدم رفع عقيرته للمطالبة بحقوقه ، وطلبت المعونة على تقوية مركزها فوجدت المحتكر والمرابى والاقطاعى الجشع المستغل فى صفها ، ووجدت الحكومات الأجنبية ذات المطامع فمدت يدها لمصافحتها. أو تصدقون أن من يسكر ليلا مع محتكرى الاقوات ومجوعى الشعب ويعينه على تعديه غير المشروع يهمه انقاذ فلسطين وغير فلسطين ، ومن لا يرحم ذويه الأقربين وأهل عشيرته وأبناء بلده الأدنين ، أيهمه ان يعتنى بالأبعدين ؟ من وزر هذه الوزارات فى أغلب ارجاء العالم ، ومن اختار هؤلاء النواب والحكومات ، ومن سن هذه القوانين ، ومن شرع شرائع خنق الحريات ؟ ولكن هذه الدول تسمى رغم كل ذلك دولا دمقراطية لا تصدر شيئاً بدون رضى الشعب ، فيالها من كذبة كبرى ويالهم من كذابين ! اذن فاحذروا الخداع والكذب . احذروا النفاق المكشوف ، ان من يستطيع أن يكذب كل هذه الأكاذيب لا يصعب عليه أن يعدكم بانقاذ فلسطين وهو في الحقيقة متآمر مع الصهيونية في الداخل ومع الاجنبى ذى المصلحة فى الخارج ، والويل لمن يعترف بالواقع ويشير الى الحقيقة ولو اشارة صغيرة » .

وقوطعت الخطيبة بهتافات شقت عنان السماء ، ثم ماج الجمهور واضطرب واخترقت جموعه خيالة الشرطة شاهرة عصيها وتفرق الجمهور ، بين صرخات الاستياء ، وثب ماجد ورفيقاه نحو سنية فأدركاها أخيراً وجراها جراً من وسط المظاهرة .

- ٤٠ -

دعى الدكتور حسام وزوجته ماجداً وسنية الى العشاء فى دارهما ، وذلك بمناسبة فشلهم فشلاً تاماً فى مشروعهم الزراعي • فقد أنبأه ماجد بأن المصيبة قد نزلت أخيراً بالشركاء ، وأنهم على أبواب الافلاس فقد افتتح مشروعه بدعوة على شراب فيجب ان يختتمه بشراب أيضاً • والفرق بين نوعى المشروب سيكون كالفرق بين وضعينا قبل أن يرمينا فى هذه التهلكة وبعدها ، والغبن علينا جميعاً • وقدمت سنية قبل زوجها ووجدت المائدة معدة ورأت قنينة الشراب في غرفة الاستقبال فضحكت وقالت لحسام : « تلك تعزية لطيفة ، ولكنى أخاف أن يرجع الى الادمان بعد ان ترك الشرب طيلة اشتغاله بالزراعة تقريباً » •

وسألتها هيفاء : « ولكن أين هو الآن ؟ » • فاجابت سنية « لقد ذهب للمساومة على بيع المشروع وهو لا يحلم الآن الا ببيع هذا المشروع – ويود لو يضحي بحصته فى سبيل ارجاع دراهمكم ودراهمي ، ولم أستطع اقناعه بأننا شركاء فى الغرم والغنم وأن لا ذنب له فى الامر » •

وسمع الرفاق صوت ماجد الجهوري وهو يتحدث مع الخادم ممازحاً ثم دخل غرفة الاستقبال ورمى بحقيبته على أحد المقاعد وأسرع الى زجاجة العرق فرفعها وهو يبتسم ابتسامة حزن ويقول : « انها فكرة الدكتور ويا له من ختام » •

وأسرع فملأ كأساً مزجه بالماء ثم التفت الى زوجته وأصدقائه قائلا : « وهل أكون أنا الوحيد بينكم الذى يحتاج الى عزاء ؟ » .

فقالت زوجته : « انى لم أعتد شربها ، ولكن لك أن اشاركك فى رسميات الحفل » . فقالت الدكتورة وهى تتجه الى المائدة : « هذا واجبي أنا » .

وملأت بعض الكؤوس بمقادير مختلفة وانرعت كأس حسام وهو ينظر اليها ضاحكاً . ثم وقفوا معا فقال حسام : « اننا نشرب نخب فشلنا المريع وافلاسنا المخيف ونخب صحة تنبؤات سنية » .

والتفت ماجد الى زوجته وهو يقول « ترى هل تنبأت لنفسك ، وأنت تلقين ذلك الخطاب الملتهب فى المظاهرة ، عن نتائج عملك ؟ أم انت تتنبأين للغير فقط ؟ » .

فقالت سنية : « لقد أخبرتك في حينه بأن حراس الدواوين فى وزارة المعارف سيدقون طبل الحرب ، وينفخون فى صور الخطر ، وقد فعلوا . لقد انذروني اليوم بالفصل » .

فقال ماجد : « المصيبة هى أني اخجل أن اكون أنا مدافعاً عنها لأني لا أعتقد فى نفسى الكفاءة فى الدفاع عن أمثالها » . فسألت هيفاء : « وهل تعتقدين انهم سينفذون ما هددوا به ؟ » .

فاجابت سنية ساخرة : « سيخففون من غلوائهم رغم أنوفهم بعد قليل . لقد جاع الناس الى حد لا يحتمل وبدأت همهمة التذمر ، والناس هنا لا تهمهم السياسة فى الأوقات الاعتيادية أما حينما تكون

حياتهم مهددة بالخطر جوعاً ، فان أعصابهم تكون مشدودة كالأوتار ، معدة لاطلاق انغام طيبة اذا عزف عليها عازف ماهر » .

فقال حسام : « وقد عزفت أنت يوم خطبت فيهم عزف أستاذ محنك حتى ان أعصابنا أيضا استجابت لعزفك رغم أنها غير مشدودة ولا متوترة . ولكن أتظنين أن الامر خطير الى هذا الحد ؟ » .

فقالت سنية : « أما أنه خطير فنعم ، ولكن خطورته موقتة لأن الباعث على تذمر الناس غير عميق الجذور . ولكن العاصفة رغم قصرها ستزعزع كيان بعض أرباب النفوذ وتقلل من هوس المتنمرين وراء مناضدهم فى الدوائر الرسمية ، فلا يستطيعون أن يوجهوا لوماً ، أو تعنيفاً لأ مثالى » . فقالت هيفاء : « يميناً انى لأكاد احس بوقوع كل ما تقولين . فقد عددتنا صحة التنبؤ » .

وقال ماجد « بودي لو يحدث شيء من الشغب ، فانى جد راغب فى ان أضرب أحداً أو اقتل احدا بعد ان تأكدت ان كل ما عند الدولة من قوانين لا يحمينى ، حتى أنا ، ضد المعتدين . أنظروا الى حقيبتى هذه المملوءة بالحجوز فقد حجز علينا الدائنون والبياع وتاجر الشعير والحكومة أيضاً ، والأنكى من ذلك أنهم ساقوني الى محكمة الجزاء مطالبين بما يسمونه حنطة الحكومة أو حصة التموين وهم يعلمون مصير الحنطة التى قتلوها بأنفسهم . لقد فرضوا علينا مقداراً دون سؤال أو جواب أو استشارة أو اعتراض ، وقد تستغربون لو قلت لكم انهم فرضوا علينا وعلى فخري اغا مقداراً متساوياً » .

فقال حسام : « ما أشبهنا بديك هزيل قد احاط به عدد كبير من الثعالب . ترى من هو الذى سيشبع من هؤلاء الثعالب ؟ » .

فقالت سنية : « قد تنشب معركة بين الثعالب فيهرب الديك » .

فنظرت هيفاء متطلعة وقالت : « أثمة امل ؟ » .

فقلبت سنية كفيها يأساً وقالت : « من يدري ؟ » .

- ٤١ -

تأجج غضب سليم الفريحة وهو ينظر الى زبالة مرتجفاً ، ويكيل له المثالب والسباب وتدخل ماجد بينهما واستطاع بعد جهد أن يخمد من هياج سليم ، وسكت بعد أن ذهب زبالة الى حال سبيله وهو يرغي ويزبد .

قال سليم : « تالله انها لنذالة مفرطة أن يعاملك هؤلاء الكلاب مثل هذه المعاملة بعد أن ضحيت براحتك في سبيل مساعدتهم ، وما كان يخطر لى على بال أن يتآمروا فى النهاية عليك ، ويتفقوا مع اعدائك على اخراجك من المشروع صفر اليدين » . فأجاب ماجد : « لاتظنها مؤامرة علي فأنا الذى طلبت من زبالة ان يتفاوض مع هؤلاء الجيران على شراء حصصنا من المشروع » . فقال سليم : « ولكنك اعتمدت على أناس لاضمير لهم لقد أطمعوا زبالة بتسديد ديونه أذا اقنعك بالخروج من المشروع باسقاط الديون التي عليك وعلى جماعتك بينما هم مستعدون ان يدفعوا ماصرفتموه على الاقل ويقبلوا كل الديون التى فى ذمتكم» .

كان ماجد يسير مع سليم قرب مديرية الشرطة العامة وهو مستغرب من شدة اخلاص سليم وتألمه ، وحاول عبثا ان يخفف من غله على اقربائه الذين لايرعون حرمة لصديق ولاوفاء لاحسان . وكان ماجد غير منتبه الى تلك الحركة غير الاعتيادية التى سادت الشارع . ولكن

سليم نبهه اليها بقوله :« لقد قامت مظاهرة هائلة صاخبة اليوم زيادة على مظاهرة البارحة . لقد مشيت مع المتظاهرين حتى وصلوا المجلس النيابى واظنهم مازالو هنالك» .

وانتبه ماجد الى عدد من السيارات تحمل افراد الشرطة وهم مدججون بالسلاح .. وهمس سليم :« اخشى ان يطلق الشرطة الرصاص على المتظاهرين اليوم » . فقال ماجد : «لقد هدد وزير الداخلية البارحة بتفريق المظاهرات بالقوة ولكنى لا أعتقد انه يجرؤا على ضرب الناس بالرصاص» .

فقال سليم :« اذا كان الناس لايريدون المعاهدة فلماذا لايثورون على الحكومة؟ ان ابناء العشاير مستعدون للثورة » .فقال ماجد ضاحكا : «أرى ان حماس الطلاب قد اعداك انت ايضا فهل كل الفلاحين على شاكلتك ؟ » .

فقال سليم: «انهم كلهم يضمرون لك حبا رغم ان قسما منهم قد اساء اليكم يهربهم بالديون ، ولكنهم مستعدون للرجوع الى مزرعتك عند أول اشارة ، ولو طلبت الآن اى عمل منهم لوجدتهم طوع اشارتك . لقد سمع بعضهم بالاضطرابات في بغداد فقال بعضهم لبعض :« لو حدثت ثورة فسنطلب من ماجد ان يقودنا وسنستولى على هذه المنطقة كلها ونسف الجسر الذى يصلنا ببغداد ونفعل الافاعيل» .

فقال ماجد مقهقها :« لقد حطمنا الفشل في هذا المشروع ياسليم ولو ربحنا شيئا منه لشيدنا لكم مدرسة ومستوصفا ،وأرجو ان تطرد

من أفكار اصحابك ميلهم الى الثورة والتهديم : فلو قطعتم الجسر كما تقولون فهلا خبرتنى كيف تنقلون حاصلاتكم الى بغداد ؟» • ويظهر ان سليم اقتنع بهذا المنطق البسيط فقال : «لقد اساءت الحكومة الينا اساءة سليم اقتنع بهذا المنطق البسيط فقال : « لقد اساءت الحكومة الينا اساءة لاتغفر ولعل الله ينزل بها اشد عقابه لتجاوزها غير المشروع علينا وتدميرها لاعمالنا » • ثم تنهد وأضاف : « أليس من الغريب أن نخسر ونفلس ونحن مزارعون ؟ فى حين أصبحت وزنة الحنطة بخمسة عشر دينارا ؟ انها من الفرص النادرة فى حياة المزارع والفلاح ،ففى مثل هذا الوقت يسترد الفلاح كل خسائره ويربح الملاك الالوف ، حتى ان الربح ليذهب بعقل بعضهم فيركب رأسه» •

فأجابه ماجد ضاحكا :« ربما كان ذلك لاننا انفسنا لانستحق أن نكون مزارعين أو ليست لنا القابلية على ذلك » • فانطلقت اللعنات الصاخبة من فم سليم وقال :« وهل هؤلاء المثرون والمحتكرون الذين يسرقون الفلاح والحكومة علنا هم الذين تليق بهم الثروة ؟» كم أود لو تحدث ثورة فعلية لاشفى غليلى كما أشاء» •

- ٤٢ -

اسرع ماجد ووراءه سليم نحو مصدر التجمع تحدوهما اصوات الهتافات العالية الصاخبة التى كانت تصل اليهم واضحة ، وكان مركز التجمهر ، كما بان من حركة المرور واتجاه افراد الشرطة ، هو طريق المجلس النيابى • وما كادا يصلان الى الساحة امام المجلس حتى رأيا الازدحام قد سد هذا الشارع والشوارع الاخرى المؤدية اليه ،وتعالت الهتافات مرة أخرى مدوية كصوت الرعد :« يسقط صالح جبر ، تسقط معاهدة جبر بيفن ، يسقط الاستعمار والصهيونية »•واندفع ماجد بين الجماهير ليتسنى له سماع الخطب عن كثب •• ووصل بعد جهد عظيم الى مدخل الساحة ، وكان أحد الخطباء قد انتهى ونزل بين دوى الهتافات ،واعتلى شاب صغير السمن رث الثياب سقف سيارة فارهة من سيارات النواب • فقال ماجد لرفيقه :«ياله من منبر غريب؟» فأجاب سليم مستغربا : « أنظر اليه كيف يهتز ويرتجف • انظر الى ملابسه الخلقة • أهو موظف؟» •

فأجاب ماجد : «يدل لباسه على أنه موظف صغير او على الاصح مستخدم في أمانة العاصمة » • وبدأ الخطيب يكيل التهم والشتائم المقذعة للنواب بصوته الضعيف المرتجف ، فسماهم اعضاء المجلس المزيف ، مجلس الجواسيس وأعوان نورى السعيد• فتعجب ماجد وقال:

«ان هذا اليوم له مابعده ، اذ لم يحدث ان شتمت الهيئات الحكومية وذوو السلطة والنفوذ بمثل هذه الجرأة ».

فقال سليم « ما أحسن هذا ، أنه يرفه عن المنا المكبوت جميعا فكلنا نريد ان نشفى غليلنا بمثل هذه الشتائم ان استطعنا». وقوطع كلامه بصوت الجماهير تردد التهم والشتائم المقذعة تقذفها في واجهة المجلس وفى أوجه النواب الذين ملأوا الشرفة . وتسلل النواب الواحد تلو الآخر الى داخل المجلس مشيعين بالسباب البذىء .

وتهاوى الخطيب الصعلوك بعد أن أختنق صوته ، وكانت آخر عباراته : « ايها اللصوص يا مجوعى الشعب وسارقى خبز الجماهير ، انكم لم تكتفوا باحتكار أقواتنا بل قررتم بيعنا للاجنبى كما تباع السائمة » . وقال سليم لماجد : «يالمسكين ! أنا متأكد بانه لم يفطر ، انظر الى وجهه المصفر الشاحب ». فقال احد الحاضرين : « ان نصف الموجودين في المظاهرة لم يفطروا ، وأغلبهم لا يأكل في اليوم الا مرة واحدة . انهم يتكلمون بصوت بطونهم ولولا الجوع لامضيت مئات المعاهدات أمثال هذه دون أن يلتفت اليها أحد » وتحركت تلك المظاهرة لتخلى المكان لاخرى وعرف ماجد من شعارات المظاهرة القادمة أنها مظاهرة عمال ، وكانت الطبول تسير أمام المظاهرة وهى تدق دقات موزونة تماثل تلك التى تدق فى يوم عاشوراء . فتوثب سليم متحمسا وقال متحسرا : « لماذا لم تنبئنى ياماجد بيك قبل حدوث هذه المظاهرات ؟ لو علمت لاتيت بكل الفلاحين فى ناحيتنا ونظمنا مظاهرة تشبه هذه شعارها المساحى والمناجل

ولشفينا قلوبنا ايضا بسب مدير الناحية والشرطه ، ولتسرحنا المصائب التى تصب على رؤوسنا من قبل الحكومة والملاكين المتخمين» . واعتلى أكتاف الجماهير مارد أسود من العمال وانطلق يلقى قصيدة شعبية بلغة الجماهير ، بليغة رائعة ملكت على ماجد حواسه وجعلت عينى سليم تذرفان الدمع حماسا وتهيجا ،وانطلق يستعيد ابياتها بصوته القوى .

كان فى الشرفة المطلة على الساحة نائب شاعر بقي وحيدا بعد أن هرب رفاقه النواب ، وكان يصغى الى شاعر العامة كانه قد شد به وبالمتظاهرين بحبال خفية . وبدا عليه وهو يصغى الى قصيدة ذلك العامل سرور وارتياح عظيمان ، فكأن بينه وبين ذلك العامل صلة روحية وروابط متينة أزلية .

- ٤٣ -

لعلعت طلقتان متتاليتان من مكان غير بعيد عن المجلس وأعقبتهما بعد لحظة خمس طلقات ودل بعد الصوت على انها أطلقت من محل غير المحل الاول • وهدا جمهور المتظاهرين وسكن سكونا غريبا يشبه الفترة بين تألق البرق وصوت الرعد ، ودام ذلك السكون لحظات ثم أنفجر الجمهور مرة واحدة كما تنفجر الصاعقة ، مناديا بالدفاع حتى الموت وبسقوط الارهاب • وشعر ماجد برجفة تشبه تلك التي تحدث من لمس سلك كهربائى وأحس بيد رفيقه سليم ترتجف وهى تضغط على ساعده ، فأدرك انهما يشعران بما يشعر به جميع المتجمهرين ، وان ذلك التيار قد سرى فى أجسام كل الناس فكأنه تيار كهربائي أنطلق بطلقات البنادق • وكأن زناد تلك البنادق زر ذلك التيار •

ورأى ماجد صاحبه سليم يشهر مسدسه فيطلق طلقة في الهواء ويرتجل على الفور مقطعا يرتجزه هازجا وهو يهتز واجابته الجماهير تردد ذلك المقطع ، وقد تفجرت حماسا واندفعت نحو مصدر النار ، نحو شارع الرشيد •• وصلوا الشوارع كتلة واحدة فرأوه كالنهر يجرى بشرا وتتلاطم فيه أمواج المتظاهرين تلاطما شديدا وتتجاوب الاهازيج تجاوبا يلهب الدماء •

وتعددت اطلاقات النار فكانت كالزيت يلقى فوق حطب مشتعل وابصر سليم عددا عديدا من الفتيات واوجههن قد التهبت احمرارا كأنها مغسولة بالدماء ، ورأى عن بعد زوجته وقد شاب أسمرارها الجميل حمرة خفيفة ، فشعر بالرعدة تتمشى فى مفاصله وكانت الجماهير المتراصة تحول بينها وبينه .

واقترب صوت اطلاق النار وانشق الجمهور الى نصفين كما تشق المياه بقارب بخارى سريع ، وابصر المتجمهرون سيارة مصفحة فوقها عدد من رجال الشرطة ، وكان رشاشها يدور كالثعبان فى كل الجهات فيرسل نفثات من حممه فوق رؤوس الجماهير وكانت خيالة الشرطه تحتل الطريق التى اقتحمتها السيارة فأفتتحت فيها مسلكا .

واقتربت السيارة من الفتيات واطلق ماجد صرخة رعب عندما رأى سنية ورفيقاتها يسددن الطريق عليها بأجسادهن ووراءهن كتلة هائلة من الرجال ، وتخاذلت سرعة السيارة وسكن فوقها الثعبان النافث وتهاوى الطابوق فوق رؤوس الخيالة من فوق سطوح المنازل كالمطر فكأن جدران تلك السطوح ارادت الاشتراك فى القتال فأنتزعت نفسها وانتشرت فوق رؤوس الشرطة ، واقتحم الشرطة الخيالة الطرق الفرعية الضيقة ونجوا بأنفسهم هربا وانهالت الحجارة فوق السيارة المصفحة وتقافز افراد الشرطة من فوقها واختفوا وراء رفاقهم وكان اعجب مافى الامر أن الجماهير لم تتعرض لشرطى هارب بأذى فكأن خصمهم قوة معنوية لايمثلها الشرطة . واصابت حجارة رأس الشرطى

الجالس وراء رشاشة فنكس رأس رشاشه غير عامد ، وارسل صلية ثم هرب ، ورأى ماجد وهو يدفع نفسه بقوة خارقة وسط الجمهور ليصل الى السيارة ان سنية تحمل احدى رفيقاتها وقد سبحت بالدماء . ورأت علامات الفزع على وجهه فقالت تطمنه :«لست انا المصابة بل رفيقتي لمياء ، فهيأ اعنى على اسعافها» .

فرفع ماجد الجريحة بين ذراعيه القويتين وابتعد عن السيارة التى اشتعلت فيها النيران .

وسمع وهو يبتعد صوت سليم وهو يرقص حول السيارة المشتعلة ويطلق من حنجرته القوية اهازيجه الملتهبة .

اقتربت سيارة أسعاف وهى تشق صفوف الجماهير ، ووقفت بجانب ماجد ، واطل منها الدكتور حسام مرتاعا فقال له ماجد دون ان يترك له فرصة للسؤال :« اعتن بهذه الجريحة فقد نزف من دمها كثير »• وقالت سنية بعد أن برزت من الازدحام فشاع الاطمئنان فى وجه حسام عند رؤيتها :« سأذهب معها الى المستشفي »•

فقال الدكتور لسنية :« سأرسلك معها لتوصى هيفاء بها وتعاونيها على العناية بها ، فالجرحى كثيرون وهنالك عدد من القتلى أما انا فسأستقل سيارة أخرى لالتقاط الجرحى وخير لك ياماجد ان تساعدنى»•

واستقل الاثنان سيارة اسعاف ثانية مضت تشق صفوف الجماهير ومضى حسام يحدث صاحبه :« لقد حدثت مجزرة اخرى امام المستشفى فقد حوصر طلاب كلية الطب ومنعوا من الخروج للاشتراك فى المظاهرة وضرب نطاق من الشرطة المسلحة حول بناية الكلية •وقد اراد التلاميذ ان يفكوا عنهم نطاق الحصار بالقوة فقوبلوا بوابل من الرصاص • لقد تحمس الناس خارج المدرسة انتصارا لكلية الطب • وهم صبى لايتجاوز سنه الخامسة عشرة أن يتناول حجارة من الارض فقل رأسه شرطى بطلقة وقفز دماغه كتلة واحدة على الارض فرفع الدماغ المفلول وطيف به فى ردهات المستشفى فأضرب الاطباء عن العمل وقدم عميد

كلية الطب أحتجاجا صارخا عالميا : « ارى أن الاحداث تتوالى بسرعة هائلة مخيفة واخشى ان تغرق البلاد بالدماء » .

فقال ماجد « لاخوف من ذلك فمجرد سقوط الوزارة سيعيد الاحوال الى مجاريها الطبيعية ، ولاضير على رجال الحكم أن يعلنوا الغاء المعاهدة المزمع عقدها ريثما تهدأ الاحوال » .

واقتربت سيارة الاسعاف من منطقة خطرة قرب ساحة الملك فيصل الثانى . كانت الساحة خالية ، والرصاص يلعلع بين حين وآخر وقطع الطابوق تتطاير في الفضاء ، واقتربت السيارة ونظر السائق فى وجه الدكتور متسائلا . فقال الدكتور : « تقدم فمهمتنا تقتضى أن نسرع بأسعاف المجروحين قبل فوات الفرصة ، ولا اعتقد أن الشرطة تجرؤ على رمينا » . وقطعت عليه الكلام رصاصة اخترقت سقف السيارة ، فتهيج ماجد وقال : « ان هؤلاء لا يرعون حرمة للهلال الأحمر فهل يفعلون ذلك جهلا أم تعمداً ؟ » .

وأمر الدكتور سائق السيارة التوقف قائلا : « هنا جريح » .

ونزل الدكتور يتبعه ماجد وأحد الممرضين ، واقتربوا من الجريح المطروح على الرصيف والدم يتدفق منه بغزارة ، وكان وجه الجريح الى الجانب المقابل ، وما كاد الممرض يقلبه على ظهره حتى قفز الدكتور وماجد كالملسوعين . كان سليم يبدو كالميت تماماً ، واسرع الدكتور فجس موضع القلب وقال : « انه حي ، فهيا ، أسرع » . ونقل سليم الى السيارة محمولا على أكف اصدقائه ، ومضى الدكتور يعمل بسرعة

فى جس الجرح واسعاف الجريح بينما كانت السيارة تنهب الأرض نهباً فى طريقها الى المستشفى .

وقال ماجد وعيناه مغرورقتان بالدموع : « ان خسارة هذا الصديق الوفي المسكين لا تعوض » .

فقال الدكتور وهو منهمك بعمله : « انه لم يمت رغم فقدانه كمية كبيرة من الدماء ، وقد أغمى عليه بسبب كثرة النزيف كما يظهر ، فهنالك أمل كبير بانقاذه » .

- ٤٥ -

كانت قاعة المستشفى ، وهي تلك القاعة التى رأى سليم أصدقاءه فيها لأول مرة ، غاصة بالجرحى ، وكانت الحركة فيها قائمة على قدم وساق فكأن القاعة مستشفى من مستشفيات الحرب .

وفى ركن من تلك القاعة معزول بستار من الخشب ، اجتمع الرفاق الأربعة حول سرير سليم . كان ماجد متمدداً على سرير طبى وقد شمر عن ذراعه وارتدى البياض وبينه وبين ذراع سليم جهاز ذو شرايين يقوم بنقل الدم من جسمه الى جسم الجريح ، وكان الدكتور والدكتورة منهمكين فى العمل . أما سنية فكانت تتكلم مع ماجد بهدوء ووجهها شاحب ، ولما انتهت عملية نقل الدم التفتت هيفاء الى ماجد فقالت : « عليك بالراحة فقد أعطيت من دمائك مقداراً يجب أن تعوضه » . ومضى الدكتور يجس سليم بادواته ، ثم التفت الى ماجد القلق وقال : « لقد تحسنت حالته كثيرا بفضل دمائك . ان دماءك مطابقة لدمائه بالخواص وكأنها جزء منها ، فما اغرب ان يكون دم الفلاح شبيهاً بدم ابن الباشوات والبيكات » .

وسمع الرفاق تمتمة تخرج ضعيفة من بين شفتي الجريح ، فقال الدكتور : « اظنه يهذي » وأصغى الرفاق وظهرت تمتمة سليم واضحة آخر الأمر فاذا هو يقول : « ذودوا هؤلاء الشرطة عن الزرع أيها

الفلاحون فانهم يريدون قتله • انظروا ، انهم يوجهون قواهم الى قتل الزرع المسكين • انهم يحصدونه بالبنادق والرشاشات • ذودوهم بخناجركم يا اخوانى ، ذودوا الموت عن السنابل التى هي فلذات أكبادكم » • وتجمعت قطرات من العرق فوق جبينه الأسمر وابتسمت سنية ابتسامة كئيبة وقالت : « انه يخلط فى بحرائه بين قتل الزرع وقتل المتظاهرين ، فيالها من مقارنة حكيمة غريبة ، الحقيقة ان المجزرة قد بدأت من يوم سلكت السلطة ومن ورائها المستغلون سلوكا سبب اختفاء الغلة من السوق وظهور المجاعة » • فقالت هيفاء : « هلا اخبرتنى بنتيجة هذه المجزرة ؟ وهل ستلبى الحكومة نداء الناس ؟ » • فأجابت سنية : « اذا تكلمت جروح الشهداء خرس الأحياء ، وأطاعوا اطاعة مطلقة مطاليب الدماء المتدفقة • وستبقى هذه الجروح تطلب المزيد من الدماء ، وسوف يرهب الشعب حتى يدفن الشهداء وينسى الناس امرهم » •

فقال ماجد : « ان الشعب ضعيف الذاكرة سريع النسيان والويل للشهداء ولمن صاح بأصواتهم من قوى الاستعمار المطعون ، والمستغلين المهانين ، يوم ينسى الشعب من مات فى سبيله » •

فقالت سنية متجهمة : « أجل سيلغون بالدماء من جديد وربما سفكوا كثيرا منها بأيدي غيرهم لا بأيديهم هذه المرة ، ولكنهم لو سكروا برائحة الدماء انذاك فسوف لا ينتبهون من سكرتهم حتى تختلط دماؤهم بدماء ضحاياهم » •

وفتح سليم فى تلك اللحظة عينيه فنظرت اليه هيفاء باسمة وسألته بلطف عن حاله فنظر فى وجهها ببلاهة وكأنه لا يعرفها •

فقال الدكتور : « أخشى أن يكون قد اصيب بصدمة فى دماغه • لقد سلكت الرصاصة التى أصابته عن قرب ، طريقاً غريباً في جسمه فدارت دورة كبيرة ثم نفذت قرب الجمجمة بعد أن رضت العظم رضاً بسيطاً » •

وتقدم منه ماجد وقال : « كيف جرحت يا سليم ؟ » •

فتمتم : « بخنجر ابن فطيمة يابيك • كنا نقتتل على الارض • لقد حاول ان يضرب اختي » •

وتبادل الاصدقاء النظرات ، وقال الدكتور حسام : « قد يسبب الاجهاد ضعفا فى الذاكرة بعض الأحيان لمدة وجيزة ، وأرجو أن تكون حالة صاحبنا من هذه الحالات » •

فقالت هيفاء وهى تبتسم : « لعله بحاجة الى دماء أكثر مما اخذ ليستعيد نشاطه وذاكرته وليستطيع أن يفرق بين اعدائه واصدقائه » •

انتهى

التصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩٨	١٠	الحوان	الحيوان
٩٩	٦	عظيم	عظيم
٩٩	١٠	الفرد	القرد
١٠٥	٥	صرفاهما	صرفا همهما
١٠٥	٩	نفذ	نفد
١٠٦	١٢	واوامر	واوامرك
١٠٦	١٥	خطيبنك	خطيبتك
١٠٦	١٨	مقبوله	مقبولة
١٠٧	٩	ففد	فقد
١٢٠	١	تصحبا	تصبحا
١٣٠	١٢	انى	أتى
١٣٢	١٧	بنتهى	بمنتهى
١٣٣	١٥	تستنتج	نستنتج
١٣٦	١١	ينطلم	يتظلم
١٣٩	٣	قسرة	قترة
١٣٩	١٠	صفة	صفه
١٤٢	٥	فال	قال
١٤٢	٥	لله	تالله
١٤٩	١٦	رفيقية	رفيقيه
١٥٤	١١	عددتنا	عودتنا
١٥٧	٧	يجرؤا	يجرؤ
١٥٤	١٤	يهربهم	بهربهم
١٥٨	٤	تغفر	تغتفر
١٦٣	١٣	الثعبان	الثعبان
١٦٤	١	رشاشة	رشاشه

ثمن النسخة ٢٠٠ فلس

صورة الغلاف للفنان اسماعيل الشيخلي

مطبعة شفيق ـ بغداد
١٩٧٠

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY